

و ما أدراك ما النعمان ... كأس العلم لا يجرح الشفاه!

أبو حنيفة .. قصة رجل فريد

د . إسلام المازني

هو...

رجل سمي (الإمام الأكبر)...

و تلك التسمية لم تأت من فراغ ، بل كان الرجل جديرا بها ، و لا تعنى
عصمته من الزلل و إنما تدل على مدى وجاهته و عطائه العلمى...

رأيت أبا حنيفة كل يوم * * يزيد نباهة و يزيد خيرا

و ينطق بالصواب و يصطفيه * * إذا ما قال أهل الجور جورا

من شعر الفقيه الثقة عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى...

والده (ثابت) قدم من فارس للكوفة ,

و عمل بالتجارة كما هي حال الأسرة ، و عاش فى يسر مادي...

ولم يكن نسبه الفارسي مقلدا من قدره ، فالإسلام العظيم يقدم المقدم و
الفعال ، و يقر بشرف التقى ، و ليس نظام أسر و عائلات ، أو عصبية
متطرسة حمقاء.....

فقبل وثيقة النبلاء (الماجنا كارتا) الأجنبية كانت

وثيقة الحق سبحانه

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم)

رحم الله أبا حنيفة المسلم غير العربى الأصل ، الذى فاق بنى يعرب
بلاغة و أدبا و علما ... و أحبوه أكثر من أنفسهم...

فصدقت فيه نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس)

و أبى حنيفة الإمام و مالك * * و الشافعى و أحمد المتمنع

نزل والده ثابت بالكوفة و عاش بها ، و فيها رزقه الله بابنه الإمام أبي حنيفة و اسمه هو

النعمان بن ثابت ، ولدَ سنة ٨٠ من الهجرة.

و كان أبو حنيفة يبيع القماش و الثياب ، و استمرت معه المهنة الحلال

و مما أثر عن أبي حنيفة بعدها في

حرصه على الكسب الحلال :

أنه كان يقول: " أفضل المال الكسب من الحلال وأطيب ما يأكله المرء من عمل يده . "

فلم يكن قلب الشاب النعمان غافلا في خيالات الفتيان ، و لا سامدا في الضحك و الرغبات ، و لم يكن يحيا إغفاءة طولها ستون عاما مثل بعض الناس

بل كان هدفه كبيرا و حلمه عظيما.

و نقف هنا مع هذا التاجر الصدوق في رواية لها العجب :

جاءته امرأة بثوب من الحرير تبيعه له فقال كم ثمنه، قالت مئة، فقال هو خير من مئة ، يعنى هو من يقول لها ارفعى الثمن فهو يستحق أكثر و لا يستغل الفرصة كتاجر!

فقلت مئتين، فقال هو خير من ذلك، حتى وصلت إلى أربع مئة فقال هو خير من ذلك، قالت أتتهزأ بي؟ فجاء برجل فاشتراه بخمسمائة...يعنى هو من جاءها بالمشتري ابتغاء مرضاة الله و لم يأخذ نسبة على الوساطة

...

سيرة بلون البنفسج!...

فلم تكن حياته لعبة مكسب و خسارة يحيها صعوذا و هبوطا قفزا و سقوطا كأي تاجر!

* * و ذات يوم أعطى شريكه متاعاً وأعلمه أن في ثوب منه عيباً ، و أوجب عليه أن يبين العيب عند بيعه ، و باع شريكه المتاع و نسي أن يبين ، و لم يعلم من الذي اشتراه، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله.

فى الزهد أحمد و النباهة مالك * * و أبى حنيفة و الأغر الهاشمى

* * * و كان أبو حنيفة يجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة فيشتري

بها حوائج الأشياخ و المحدثين

(منح دراسية مجانية لطلبة العلم) و أقواتهم وكسوتهم و جميع لوازمهم

، ثم يدفع باقى الدنانير من الأرباح إليهم ويقول:

أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله , فإنني ما أعطيتكم من مالي شيئاً
ولكن من فضل الله عليّ فيكم .

فهو شريك لهم إن شاء الله في كل علم بثوه للأمة,
و شريك لمن تعلم منهم في الأجر...
فلم يكن أبا حنيفة مورثاً علمه فقط بل ناشراً للعلم متبرعاً سخياً...

يا وردة ترسل أنوارها * * فيضا على الكون من الرابية

* * * وقد ذكر في اختياره لطريق العلم والفقهِ قوله:
كلما قلبته وأدرته لم يزد إلا جلالته... و رأيت أنه لا يستقيم أداء
الفرائض وإقامة الدين والتعبد إلا بمعرفته ، وطلب الدنيا والآخرة إلا به

..

* * * * و من معلميه الفضلاء سادة الأمة و تاركى إرث الذهب لها:

قال الإمام الذَّهَبِيُّ رحمه الله في كتابه الجميل ((تذكرة الحفاظ)) ١/١٦٨ :
أن أبا حنيفة النعمان حدَّثَ عن :عطاء، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز ،
وسلمة بن كُهَيْل، وأبي جعفر محمد بن علي، وقتادة، وعمرو بن دينار،
وأبي إسحاق، و خلق كثير !)).
وقال في ((العبر)): :

(وروى عن عطاء بن أبي رباح، وتفقه على حماد) ،
فالرجل كان يروى الحديث ، و يتعلم الفقه و يجتهد فهم الحكم الصحيح ،
فلا يقومن أحد و يقول أنا أتبع فلانا و يترك الحديث!

فالأئمة لم يكن همهم سوى البحث عن الحديث

فإن لم يجدوه اجتهدوا ... و قالوا لو ثبت حديث يخالف مقالنا فاعملوا
بالحديث .. و الزمن الآن مختلف و قد جمعت الأحاديث و حققت...

فهذا الإمام أبو حنيفة يقول: "إذا صح الحديث فهو مذهبي." ويقول: "لا
يحل لمن يفتي من كتبي أن يفتي حتى يعلم من أين قلت." [١]

وهذا الإمام مالك يقول : "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي
فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة
فاتركوه..." [٢]

وهذا الشافعي يقول: "إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فقولوا بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
ودعوا ما قلت"، وفي رواية: "فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد..." [٣]

وهذا الإمام أحمد يقول " :من رد حديث رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فهو على شفا هلكة..." [٤] ويقول: "لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا
الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا" ... [٥]

[١] إيقاظ الهمم ص ٦٢ .

[٢] الانتقاء لابن عبد البر ص ١٤٥ .

[٣] إيقاظ الهمم ص ٧٢ .

[٤] مناقب الشافعي ج ١ ص ٤٧٢؛ والرواية الأخرى لأبي نعيم في الحلية

ج ٩ ص ١٠٧ .

[٥] شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ج ٣ ص ٤٣٠ .

فالكل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتزم ،
و لا يرضى تعصبا لشخصه ، وانظر فى طيات كتبه تجد المعانى التى
سكنت شرايينه و أوردته .. التى بثها طلابه و تلقاها من آباءه العلماء

...

**** و هنا تطبيق:

كان الخليفة المنصور يرفع من شأن أبي حنيفة و يكرمه ويرسل له
العطايا و الأموال و لكن أبا حنيفة كان لا يقبل عطاءً . و لقد عاتبه
المنصور على ذلك قائلاً: لم لا تقبل صلتى؟. فقال أبو حنيفة: ما وصلني
أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته ولو وصلني بذلك لقبته إنما
وصلني من بيت مال المسلمين ولا حق لي به !.... تأمل

*** وقع يوماً بين الخليفة المنصور وزوجته شقاق وخلاف بسبب
ميته عنها ، فطلبت منه العدل فقال لها من ترضين في الحكومة بيني

وبينك؟ قالت أبا حنيفة، فرضي هو به فجاءه فقال له: يا أبا حنيفة زوجتي تخاصمني فانصفني منها، فقال له أبو حنيفة: لِيَتَكَلَّمْ أمير المؤمنين. فقال المنصور: كم يحلُّ للرجال أن يتزوج من النساء؟ قال: أربع. قال المنصور لزوجته: أسمعْتِ. فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين إنما أحلَّ الله هذا لأهل العدل فمن لم يعدل أو خاف أن لا يعدل فواحدة لقوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} [النساء: ٣]، فينبغي لنا أن نتأدب مع الله و نتعظ بمواعظه . فسكت المنصور و طال سكوته، فقام أبو حنيفة و خرج فلما بلغ منزله أرسلت إليه زوجة المنصور خادماً ومعه مال و ثياب، فردها وقال: أقرئها السلام و قل لها إنما ناضلتُ عن ديني و قمتُ بذلك المقام لله و لم أرد بذلك تقرباً إلى أحد و لا التمسْتُ به دنياً. أ رأيتُم!

لم يكن ليله في انتظار ثقيل لمنحة أو نفحة ، سوى من رب البرية ، و لم يكن شاقاً عليه أن ينطق بالحق ، و لم يرهق قلبه بتعدد الرغبات و الميول ، فلم يدر فكره في دوائر الكلل و المعاناة للبحث عن حل وسط!

*** لزم أبو حنيفة عالم عصره حماد بن أبي سليمان وتخرَّج عليه في الفقه ، و استمر معه إلى أن مات .
حيث بدأ بالتعلم عنه وهو ابن ٢٢ سنة و لازمه ١٨ سنة من غير انقطاع و لا نزاع .

يقول أبو حنيفة: " بعد أن صحبتُ حماداً عشر سنين نازعتني نفسي لطلب

الرياسة ، فأردتُ أن أعتزله و أجلس في حلقة لنفسي ، فخرجتُ يوماً بالعشيّ وعزمي أن أفعل، فلما دخلتُ المسجد رأيتُه ولم تطب نفسي أن أعتزله فجئتُ فجلستُ معه، فجاء في تلك الليلة نعي قرابة له قد مات بالبصرة، وترك مالا و ليس له وارث غيره، فأمرني أن أجلس مكانه ، فما هو إلا أن خرج حتى وردت عليّ مسائل لم أسمعها منه ، فكنتُ أجيب وأكتب جوابي .

ثم قَدِمَ، فعرضتُ عليه المسائل وكانت نحواً من ستين مسألة، فوافقني بأربعين وخالفني في عشرين، فأليتُ على نفسي ألا أفارقه حتى يموت و هكذا كان."

سبحان الله على الصراحة و التواضع ، فلم يكن من الحالمين بكرسى الفتوى و تليفيق الأجوبة ، بل كان حريصا على الأمانة الثقيلة ، فالقيم في قلبه دافئة،

و أنفاسه أمينة عليها ، و يحتفظ بأزهار أحلامه الخالدة في رضوان الله تعالى نضرة يانعة ، لم تشبها شائبة حب الرياسة و الثناء ، فتذبل و تصير أثرا ذابلا...

و لم يؤخذ عليه سوى

*التوسع في الفقه الفرضي ، حيث يفترض الوقائع و يصمم لها حلا و فتوى ..

*قلة الأحاديث التي وصلته - نسيبا - مما أثر على اتساع مساحة الإجتهد و زادها زيادة كبيرة ، مع اشتراطه شهرة الحديث مع صحة

سندھ مما قلل مساحه القبول للحديث كحجة.

فتنته مع أبي هبيرة:

كان أبو هبيرة والياً بالكوفة ، و ظهرت الفتن بالعراق ، فجمع فقهاءها ببابه ، و فيهم ابن أبي ليلى وابن شبرمة وداود بن أبي هند ، فولّى كل واحد منهم صدراً من عمله، وأرسل إلى أبي حنيفة طالباً جعل الخاتم في يده ولا يُنفذ كتاب إلا من تحت يده ولا يخرج من بيت المال شيء إلا من تحت يده .

و كان إخضاع أبي حنيفة قهراً أو إغراءً.....
فامتنع النعمان

وقال : لو أرادني أن أعد له أبواب ماجد واسط لما فعلت !

غيره تفرح روحه بتلك الأمور ، أما هو ففرح الروح عنده مختلف ، فلا يرى المناصب أزهاراً و أنهاراً ... بل أحمالاً ثقلاً و تنازلات لا تصح ...

سُجِنَ أبو حنيفة وضربَ ضرباً مبرحاً مؤلماً أياماً متتالية حتى سقط فاقد

الوعي !

صمد و لم يقبل , فالشبهة أخت الحرمة!

*دخل يوماً أبو حنيفة على المنصور فقال له أحد الجالسين: هذا عالم الدنيا اليوم .

فقال له المنصور: يا نعمان من أين أخذتَ علمك؟ قال: من أصحاب عبد الله ابن عمر عن عبد الله ابن عمر ، و من أصحاب عبد الله ابن عباس عن عبد الله ابن عباس و من أصحاب عبد الله ابن مسعود عن عبد الله ابن مسعود .فقال المنصور احتطت لنفسك!

أرأيتم ! من أصحاب الصحابة عن الصحابة عن الحبيب العدنان عليه الصلاة و السلام ! مبلغا عن رب العزة سبحانه ... مما علمه الروح الأمين جبريل..

ورد العلا أهدى لنا وردة* * يا حبذا الورد من الورد

يا أحباب لم يكن هؤلاء الناس ملائكة يستحيل اللحاق بهم ، بل كانوا بشرا مجتهدين...

لم يكن أحدهم يقضى العمر أمام اللهو كالتلفاز و يظن أنه سيحقق أحلامه !

و لم تشغلهم أشياء تضخمت في العصر الحديث
مثل الاهتمام المفرط بكل أمر خلا الحق!

بالصحة ، بحب المال ، بالمستقبل الشخصي
بالشهرة ، بالنجومية بالشهوة ، بالأغاني،
بالحب ، بالثرثرة ، باللعب مثل لعب الكرة ، بالطعام أو بالملابس
والموضة

آه

نعود لزمن الأحباب...

نعود للنعمان....

انتفض أهل الموصل على المنصور وكان المنصور قد اشترط عليهم أنهم
إن انتفضوا حلت دماؤهم، فجمع الفقهاء و قال لهم: أليس صح أن رسول
الله قال المؤمنون عند شروطهم يلتزمون بها ، وأهل الموصل قد
اشترطوا ألا يخرجوا عليّ وها هم قد خرجوا وانتفضوا ولقد حلت دماؤهم
فماذا ترون؟ قال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين، يدك مبسوطة عليهم
وقولك مقبول فيهم فإن عفوت فأنت أهل العفو وإن عاقبت فما
يستحقون. التفت المنصور إلى أبي حنيفة يسأله و يستنطقه!

فقال أبو حنيفة: إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه وشرطت عليهم ما ليس
لك لأن دم المسلم لا يحلُّ إلا بإحدى ثلاث فإن أخذتهم أخذت بما لا يحلُّ
وشرط الله أحق أن يوفى به. عندئذ أمر المنصور الجميع أن ينصرفوا ما
عدا أبي حنيفة و قال له: إنَّ الحق ما قلت، انصرف إلى بلادك.

أرأيتم ! أرأيتن !

رجل حساس يحيا بقلب شهيد ، ففى حسابانه أنه قد يفارق الأرض بسبب
كلمته ، لكنه لا ينسى حياة الخلود و سعادة الأبد

فلا يتناثر ضميره خوفا من المواجه ،

و لا يسلم قلبه لإبليس ليستعمره و يسوغ له الخوف و التردد....

أهم مؤلفاته:

فى عصر أبى حنيفة ظهرت فرق مبتدعة قبيحة مختلفة مثل :
الشيعة والمعتزلة والمرجئة والقدرية والجهمية أو المعطلة ... هذه
الفرق كلها كانت تتحدث بالشبهات و الخرافات و الأباطيل ، و كان
أتباعها قلة لكنهم قلة سامة مسممة ، فقام علماء المسلمين يردون على
هؤلاء المبتدعة.

فمن هنا نشأت تسمية أهل السنّة والجماعة ، و هي ما كان عليه صلى
الله تعالى عليه وسلم و الصحابة و التابعين و هم السواد الأعظم من الأمة
ساعتها .

و من الله بعدها على الأمة ببقية الأئمة فأكملوا الدفاع عن الحق..

وألف أبو حنيفة كتاب " الفقه الأكبر " ليرد فيه على المبتدعة .

يبنى لأمته الحياة جديدة * * * للعلم فيها روعة و جلال
تأبى المعاول أن يقر قرارها * * * حتى تدمر ما بنى الجهال
شرف الشعوب علومها و حياتها * * * أن تصلح الأخلاق و الأعمال

أقوال العلماء فيه :

قال الذهبي رحمه الله : " برع في الرأي، وساد أهل زمانه في التفقه ،
وتفريع المسائل، وتصدر للاشتغال ، وتخرج به الأصحاب " ثم قال : "
وكان معدوداً في الأجواد الأسخياء ، والأولياء الأذكياء ، مع الدين
والعبادة والتهجد وكثرة التلاوة و قيام الليل ، رضي الله عنه "!!!!!!

....

أرأيتم لم يكن غصنا يتلوى مع الريح...
و لم يكن مكتبة متنقلة فحسب..

و قال ابن كثير رحمه الله:

"الإمام أبو حنيفة... فقيه العراق ، وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام ،
وأحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة ؛ أصحاب المذاهب المتبوعة،
وهو أقدمهم وفاة "

وقال ابن العماد في " شذرات الذهب": " وكان من أذكياء بني آدم، جمع
الفقه والعبادة، والورع والسخاء، وكان لا يقبل جوائز الدولة؛ بل ينفق

ويؤثر من كسبه، له دار كبيرة لعمل الخز وعنده صنّاع وأجراء رحمه الله
تعالى.

عالجوا الحكمة ، واستشفوا بها
وانشدوا ما ضل منها في السير
واقروا آداب من قبلكم
ربما علّم حيا من غير

أرأيتم إشراقة الرجل في سيرته ! رجل المواقف الحرة .. رافض
المساومات دوما عبد شكور ليلا،
و عالم تحرير نهارا..

رجل يدرك أن مال الدنيا و وظائفها لا يساويان الحفاظ على التقوى
وقال سفيان الثوري وابن المبارك : " كان أبو حنيفة أفتح أهل الأرض في
زمانه . "

الفضيل بن عياض قال فيه:

كان أبو حنيفة رجلاً فقيهاً معروفاً بالفقه، واسع المال معروفاً بالأفضال
على كل من يطوف به، صبوراً على تعلّم العلم بالليل والنهار، ، يقوم
الليل ، كثير الصمت، قليل الكلام حتى يرد مسألة في حلال أو حرام .
فكان يحسن أن يدل على الحق، رهاباً من مال السلطان. كان رحمه الله
واحد زمانه، لو انشقت عنه الأرض لانشقت عن جبل من الجبال في

العلم والكرم والمواساة والورع والإيثار لله تعالى.

أرأيتم..

طائر وسط أسراب العلماء ، يحلق بجناحين هما الحب و الخشية لله
المتعال ...لا يستسلم لأقفاص الدنيا الدنية و أسوارها ...

-عبد الله بن المبارك العالم الكبير والتابعي الجليل يقول : كان أبو حنيفة
مخ العلم!.....

-مالك بن أنس و هو رجل من رواد خليج الأمل ممن نشروا النور
الرباني قال عنه:

-هذا النعمان لو قال هذه الإسطوانة من ذهب لكانت كما قال!

يعنى لو قال عمود المسجد من ذهب لصدق و لأقتع..

-و فى رواية : لو جاء إلى أساطينكم فقايسكم على أنها خشب لظننتم
إنها خشب .

أرأيتم رزق الله للعبد و بركة السعى
نحسبه و الله حسيبه كان على خير.....

وإنَّ علومي باسقاتٌ وطلعُها

نصيذ ورزق للعباد ورحمة

-الإمام زفر قال: جالست أبا حنيفة أكثر من عشرين سنة فلم أر أحداً أنصح للناس منه و لا أشفق عليهم منه، بذل نفسه لله تعالى، أما عامة النهار فهو مشغول في العلم و في المسائل وتعليمها ، و فيما يسأل من النوازل وجواباتها ، و إذا قام من المجلس عاد مريضاً أو شيع جنازة أو واسى فقيراً أو وصل أخاً أو سعى في حاجة، فإذا كان الليل خلى للعبادة و الصلاة و قراءة القرآن، فكان هذا سبيله حتى توفي رضي الله تعالى عنه.

أرأيتم..

كيف يحيا شخص و يبقى رحيقه مثل شذا الزهر ، و يترك علما مثل النور له سناء في كل صفحة و مجلد ... و تقرأ الصدق فيه قبل الحرف ...حيث عاشت نفسه المعنى المقصود ، و صدقت حاله المبنى المسطور

...

تلك ذكريات الأئمة عنه ، قمة الصفاء و سلسيل الفكر النقى ، يببت يسبح الله و يصبح يجتهد لغايته الكبرى على ثقة بيوم الميعاد ، شوق يحدوه للقاء الحبيب صلى الله عليه وسلم ، فيملك كيانه كله ...

يخالف طلاسـم ،المبتدعة و قسوة قلوب المحترفين ، و لا زال هو الذكى الأريب....

-كان أبو حنيفة في زيارة شيخه الأعمش يوماً (والأعمش رحمه الله
محدث علم فذ)، فجاء إلى الأعمش رجل يسأله عن مسألة في العلم فقال
لأبي حنيفة: أجبه. فأجابه أبو حنيفة ، فقال له الأعمش : و من أين لك
هذا ؟

-قال أبو حنيفة :

-من حديث حدثني هو كذا و كذا و أخذ يروى.

-فقال الأعمش: حسبك ما حدثتكَ به في سنة تحدتُ به في ساعة، أنتم
الأطباء و نحن الصيادلة.

*** * * * *
و من ورعه و تقواه و عبادته لله تعالى: قال ابن المبارك: قلتُ
لسفيان الثوري: ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له.
قال: والله هو أعدل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها.

يعنى رجل يعرف مصلحته ، و لا يسير خلف وساوس قرينه!

*كان أبو حنيفة يختم القرآن في ثلاث في الوتر.

قال مسعر بن كدام أنه:

قرأ ليلة حتى وصل إلى قوله تعالى: {فَمَنْ لَّهٗ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ
السَّمُومِ} [الطور : ٢٧] فما زال يرددُها حتى أذن الفجر. وردد قوله
تعالى: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} [القمر: ٤٦]، ليلة

كاملة في الصلاة .

سيعود عصر النور رغم أنوفهم
ويخيب كل منافق خوآن
هيهات نور الله لا يطفئه كيدُ
عصابة حمقى من الصبيان
هيهات أن تخفى معالم ديننا
ويزول طيبُ الروح والريحانِ

*** عرض القضاء عليه ووفاته :

عرض عليه الخليفة القضاء مراراً وضرب من أجله !
و هو يرفض أن يصير ركنا له!

فهو لا يرى الفاحش القبيح براقا مليحا ... فالعلم يريه حقائق الأشياء و
ينزع زخرفها و زينتها البالية الفانية...

وقال أبو حنيفة للخليفة:

إني لا أصلح ، قال الخليفة بل أنت تكذب أنت تصلح، فقال: رأيت، أنت
تقول عني كذاب، فإني لا أصلح للقضاء!.

و عرض عليه من جديد تولي منصب القضاء فأبى ورفض فحبسه و جرى بينهما حوار قال فيه: اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب، لك حاشية يحتاجون إلى من يُكرمهم لك فلا أصلح لذلك .ثم حبسه وضربه على مشهد من العامة ثم أُخْرِجَ من السجن و مُنِعَ من الفتوى والجلوس إلى الناس حتى توفي. وقبلَ أبو حنيفة أن يعمل كأحد العمال في بناء سور بغداد تفادياً للنقمة، ولما أحسَّ بالموت سجد فخرجت نفسه وهو ساجد
عام ١٥٠ هجرية

و كان الخليفة المنصور نادما أشد الندم بعدها و ردد بعد وفاة الإمام :من يعذرنى من أبى حنيفة حياً وميتاً!.

أرأيتم الهزيمة النفسية الإنسانية ... يبقى الحق حقا..

قصص لا تهز القلب بل تنتزعه من بين الضلوع...

فأين المقتدى!

ما أكرمَ الصبرَ وما أحسنَ الصدقَ

وما أزينهُ للفتى

الخرقُ شؤمٌ والتقى جنةٌ

والرفقُ يمنُّ والقنوعُ الغنى

•تلاميذه ...

من تلاميذه من كان على السنة ، و منهم من تشعبت به السبل ، و من تلاميذه الأعلام الذين صاروا علماء و أصبحوا آية بعده ، و كتبوا فتاويه و اجتهاداته كلها و منهم :

العالم القاضى (أبو يوسف) مدوّن فقه أبي حنيفة في الكتب ، و كذا فعل محمد بن الحسن الشيبانى ، الذي دوّن كل فقهه والاجتهادات الأخرى حتى التي تراجع عنها،

وأبو حنيفة هو من رتب مسائل الفقه حسب أبوابها من طهارة وصلاة ... دوّن أغلبها الإمام أبو يوسف في سجلات بلغت عشرات الألاف من المسائل المدونة . و انتقل تلامذته و هم بالمئات (قيل أكثر من سبعمائة) إلى بلادهم خاصة بلاد الأفغان وبخارى و الهند ...

و عين تلميذه العالم الفذ (أبو يوسف) قاضياً
وتولى القضاء لثلاثة من الخلفاء آخرهم هارون الرشيد

فكان يقضي بمذهب أبي حنيفة ، و كذلك كان أغلب القضاة الذين كان ينصبّهم ، و تدون الأحكام بفقههم ، كل هذا جعل فقه الإمام أبي حنيفة

ينتشر أكثر من غيره فى تلك المرحلة

و أبو يوسف هو : يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي

البغدادي. تتلمذ على يد صاحبه أبى حنيفة.

ثم رحل إلى المدينة وأخذ عن مالك بن أنس، وناظره في مسائل كان يقول فيها بمذهب أهل الرأي فى العراق فرجع عنها لقول مالك بن أنس

رحمه الله ، من آثاره كتاب الخراج وقد ألفه للرشيد، وكتاب النوادر،

وأدب القاضي، والأمالى في الفقه، ، وغيرها!

أيا أمة المجد فى الغابر

إلام خمولك فى الحاضر

وما كان يعزى إليك الخمول

ولا كان يخطر بالخاطر

و صاحب آخر من أصحاب حامل المسك صار عالما نابغة ، هو : زفر

بن الهذيل المتوفى سنة ١٥٨هـ:

و اسمه زفر بن الهذيل بن قيس الكوفي ،و أصله من أصبهان.

و هو فقيه كبير أقام بالبصرة وتولى قضائها بجدارة .

* وإبراهيم بن طهمان المتوفى سنة ١٦٣هـ:

كان شديداً على أهل البدع) فرقة تسمى الجهمية) حتى إنه أحرَّ رحلته

إلى الحجِّ للردِّ عليهم ... فحماية الدين و نقائه من التأليف و التخريف
أولى الآن...

وألف في الردِّ عليهم كتاباً بعنوان "سنن ابن طهمان "

أرأيتم قطرات العطر التي خلفها المعلم ؟

* أما محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٩هـ:

فأصله من دمشق , و نشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة وأخذ عنه وبعد
وفاة أبي حنيفة تعلم من أبي يوسف، ثم رحل إلى المدينة وأخذ عن مالك
بن أنس، فقلل بذلك من كثرة الرأي فى فقهه ، واتصل بالشافعي رحمه
الله لما كان بالعراق ، كان قاضيا فى عهد الرشيد ثم اعتزل القضاء ، و
وقف نفسه على تعليم الفقه!!!

و كتبه هى معتمد مذهب الأحناف.....

أرأيتم ما يوسع الصدر الضيق !

أناس تعلموا فعملوا...

علموا فباعوا ، و أخلصوا فى البيع ... فلم يبق لأنفسهم حظ فى الدنيا

...

و أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ و هو من

صعيد مصر .

فتذوقوا طعم الحياة وأدركوا
ما فى الجهالة من أذى وتباب

العلم فى البأساء مزنة رحمة
والجهل فى النعماء سوط عذاب
ولعل ورد العلم ما لم يرعه
ساق من الأخلاق ورد سراب

و إنى لأرجو الله يلحقنا به

سليما من الزلات و التبعات

و صل على المختار و الآل أسوة

المصابين فى ماضى الزمان و آت

من المراجع الكثيرة التى تالأت بسيرته

سير أعلام النبلاء للذهبي

تذكرة الحفاظ للذهبي

صفة الصفوة لابن الجوزى

جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر

الانتقاء لابن عبد البر
حلية الأولياء لأبي نعيم

روائع الإمام مالك

د. إسلام المازني

لكل إمام في قلبي رونق خاص ، و مشهد مميز

لعلى أبينه لو كان في العمر بقية إن شاء الله

و لكن وقفاتي هنا مع تلك الملاحظات لتشاركوني
التأمل و العمل بما يوجبه التدبر إن شاء الله

ولكى نعلمها للصغار و الناشئة ليعلموا كم كان سلفنا
أبطالاً

و للكبار ليخففوا من تربيته و هدهة الجيل

والد الإمام مالك (اسمه أنس) كان رجلاً مشلولاً
مقعداً !

يصنع النبال و يبيعه ليعيش !

و لم يكن عالماً !

و كان يشجعه و يثبته للتعلم !

** يعنى والده لم يطلب منه أن يعمل أى مهنة ليربحه
....

** والده لم يقبل الصدقة و هو مقعد ...

** لم يكن والده رجل أعمال و لا موظفا مستقرا

بل كان رجلا فقيرا مثلولا ... و خرج ابنه عالما

** لم يكن يوفر له سيارة للمدرسة ولا اشتراكا فى
النادى

و لا مكتبة دسكات كمبيوتر و لا مصروف للحلويات

.. و رغم المعاناة كان ما كان

فما أروع الأبن و ما أروع الأب ... و ما أروع الأم

الصبورة المربية (اسمها : الغالية)

** كان الإمام مالك فقيرا أيضا بعد استقلاله في
الحياة

لدرجة أنه ورد في سيرته أنه :

باع سقف بيته لينفق ، حيث نقضه و باع خشبه !

يعنى سقف البيت خشب ، لا يحمى من الحرارة تماما
و لا من الصقيع !

و لا مراوح و لا دفايات

و لم يترك طلب العلم و ينام من الزهق و القرف

و لم يعرض عن التدريس و يعمل بمهنة تدر دخلا
بل تحمل الفقر و زوجته معه ... طلبا للعلم

زوجه كانت من الإماء (سرية)....

يعنى لم يتزوج بنت عائلة

رغم أنه جلس للفتوى و برز نجمه و هو ابن ١٧ سنة
...حين شهد له سبعين عالما أنه أهل للتدريس !

** استمر فقره بعد الزواج لدرجة أن المعاصرين
قالوا :

أنهم يشهدون أن ابنة الإمام كانت تبكى من شدة
الجوع !

*** لم تكن تبكى طلبا للأيس كريم و لا الفسحة

بل من الجوع

***فتح الله عليه المال بعدها و ربح فى تجارته !

***مكث يجمع كتاب الموطأ سنوات طويلة

و قال كتبت بيدي مائة ألف حديث !

و الورق من الجلد الجاف و شتى لحاء الأشجار

يعنى مسألة برى الأقلام بالسكين !

و تصبغ اليد من الأحبار !

و رائحتها فى الأنف ، كما أنها ليست معالجة ضد
التسمم !

و فرد الأوراق قبل الكتابة مهمة سخيفة مملة ! تكلم
عنه السلف أنه مهمتهم التقليدية حين يفترون من
المطالعة أو يأتى ضيف يشوش عليهم !

فلم يكن يكتب فى دفتر سلس لولبى الكعب
و لا فى الصفحات المصقولة المستوردة

و لا يكتب على الكى بورد الحساس !

ثم مهمة نشر الأوراق لتجف الأحبار بعد الكتابة !

و إيقاد السراج بالزيت المتعب للعين !

فليس هناك أباجورة مكتب و معطر جو !

و الضوء الخافت البسيط !

فليس هناك مصابيح فلورسنت و لا هالوجين و لا
تنجستين !

** ورد فى سيرته الصحيحة أن ابنته فاطمة كانت
تحفظ الموطأ !

** منا من لم يقرأه و لا مرة

بل لم ير شكله

و ليس فقط لم يحفظه

و لا يعرف تفسيراً لأحاديثه التى أفنى عمره لتصل لنا
!

بل و لا يعرف حتى كم عددها !

و لا لم قالها الرسول صلى الله عليه و سلم

هل قيلت للفقهاء فقط !

أم الفقهاء مهنتهم استنباط الأحكام الدقيقة !

الأحاديث و القراءن قصد بها كل مسلم ..

و المتشابه منها هو ما خص به الفقهاء !

و ليس كل الأحاديث فى الفقه !

*ورد فى سيرته أنه :

كانت ابنته فاطمة تجلس أثناء الدرس خلف الباب ،

فلو أخطأ من يقرأ على أبيها دقت الباب فأمره الإمام

أن يعيد ليتنبه لموطن الخطأ !

** لم تكن سافرة

** و لم تكن تضيع وقتها فى الشبكة العنقريية

ولا

ولا

ولا

** فى يوم من الأيام حكى أحد طلابه

أن خادمة الإمام مرت به حين جلس على بابته
ينتظره للخروج فجرا ، ليصحبته كما يفعل يوميا ،

فنام الطالب من الإرهاق ، فلما مرت به سائرة خلف
الإمام خارجة معه للصلاة ضربت رجله برجلها و
هى منتعلة ،

و قالت : قم يالكع

إن شيخك صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة
!!!

يعنى يبيت فى الشارع طلبا للعلم !

و شيخه المسن عابد فتح الله عليه ما لا تعليق عليه !
و بلغ من قلة طعامه و شرابه ما بلغ
!

و الخادمة عابدة خلف مولاها

و ترى الكسل عارا على الشباب !

و تنكر المنكر و تنصح

و هو لم يغضب منها أن رفته

فهي تحتد في التربية ، و لا تلمس الرجل بأصابعها
و تراها فرصة للفسق ..

و هو يعتبرها كأمه التي تربيته

بل اعتبرها أعجوبة و كتب القصة في تاريخه
ليقرأها الأجيال

جلس الإمام أبو يوسف علامة الأحناف ثلاثة أعوام
على باب الإمام

مالك ليسمع سبعمائة حديث !

و قال : سمعتها من فيه بلا واسطة !
و كان فرحا و يعتبرها مزية و مفخرة و فضلا !

٧٠٠ فقط في ثلاثة سنوات لينال شرف سماعها من
أصلها فيتجنب الخطأ ..

.....

*** كان يقول لا أدري في كثير من الأسئلة !

مرة أجاب عن ٣٢ سؤالاً من بين ٤٨ سؤالاً !

** أنا قلما أسمع كلمة : لا أدري من يوم أن وعيت

...

****بعد أن جلس مالك رحمه الله للفتيا رجع إليه
اثنين من شيوخه للسمع منه و الجلوس أمامه
كطالبين للعلم !**

يعنى الواقعة دليل تفوقه العجيب .. نعم ...

لكن هناك ملاحظة ثانية
أنه لا استكبار عندهم و هو شيوخه .. فنعم الجو
العلمى الخلقى .. إنه - و الله أعلم - الصدق مع الله
...

و لا استنكار أن يكون الطالب أعلم و أن يسبق

و قلما نرى أستاذا فى جامعة يسأل طالبا ، ممن أصبح
مدرسا مثله ، لا فى الطب و لا فى غيره

و الله يعلم أن من الطلاب من يعلم أكثر بكثير

لكنهم يرونها عارا

ويفضلون الجهل... إلا من رحم الله
ثلة من الأولين و قليل من الآخرين ...

أما أجدادنا فرحمهم الله جميعا

و هاك موقفا لم نر مثله :

أورد الذهبي في سير أعلام النبلاء (٧٦|٨): عن
ابن وهب :

سمعت مالكا وقال له ابن القاسم: «ليس بعد أهل
المدينة أحد أعلم بالبيوع من أهل مصر». فقال
مالك: «من أين علموا ذلك؟». قال: «منك يا أبا
عبد الله». فقال: «ما أعلمها أنا، فكيف يعلمونها
بي ! .

انظر فمأهو إلا صدق أو تواضع و هما عزيزان و
الله ..

و يسر الله لمالك :

روي أن الخليفة المنصور قال له: «إن رابك ريبٌ
من عامل المدينة أو مكة أو عمال الحجاز في ذاتك
أو ذات غيرك، أو سواء أو شر بالرعية فاكتب إلي
أنزل بهم ما يستحقونه».

(انظر مناقب مالك للزاوي ص ٣٠).

وأمر الرشيد عامله على المدينة بأن لا يقطع
أمراً دون الإمام مالك رحمه الله ، واشتهر عن
الرشيد أنه كان يجلس على الأرض أمامه لاستماع

حديثه !

و من درر أقواله :

قال الإمام مالك - رحمه الله - : «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً ٣ خان الرسالة. لأن الله تعالى يقول: {اليوم أكملت لكم دينكم}. فما لم يكن يومئذ ديناً، فلن يكون اليوم ديناً».

وقال : «لو أن العبد ارتكب الكبائر كلها دون الإشراك بالله شيئاً، ثم نجا من هذه الأهواء، لرجوت أن يكون في أعلى الفردوس. لأن كل كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء، ولكل هوى ليس هو على رجاء إنما يهوي بصاحبه في نار جهنم .

رحمه الله تعالى ..

من المراجع الكثيرة التي تالأت بسيرته

سير أعلام النبلاء للذهبي
تذكرة الحفاظ للذهبي
صفة الصفوة لابن الجوزي
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
الانتقاء لابن عبد البر
حلية الأولياء لأبي نعيم

روائع الشافعي رحمه الله
رحلة العمر مع عبقرى الأمة

د. إسلام المازنى

الإمام الشافعي ...

محبوب الأمة كلها

رجل وقور

شاعر أديب .. علامة أريب ..

قمة في الصبر

رجل مثالي ..

نشعر بدفء قلبه و توقد عقله ، على بعد السنين بيننا ...

اسمه محمد

كنيته أبو عبد الله

اسم والده : إدريس

نسبه شريف

يمتد ليلتقى مع الحبيب

صلى الله عليه و سلم

فانظر البركة :

اسمه اسم نبي ، بل هو اسم نبينا صلى الله عليه و سلم ..
سيد ولد آدم .. و أغناهم عن التعريف بالفضل .

و اسم والده اسم نبي ، هو إدريس عليه الصلاة و السلام ، و
إدريس هو من قيل فيه
(و رفعناه مكانا عليا)
فأى مكان الذى

يصفه الله العلى بأنه على !

و أى شخص من يستحق تلك النعمة ...

صلى الله و سلم على إدريس ..

فالشافعى هو :

محمد بن ادريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن عبيد
بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف .

ألقابه : فقيه الملة ناصر الحديث ...

نال تلك الأوصاف لأنه رد على الأغبياء المبتدعة ، ممن
يدعون التعامل مع القرءان فقط دون الحديث !، و بين لهم
أن كلامهم باطل ، و أنه نقض للقرءان و نقلاً للإيمان و
امتهان لعقل الإنسان ...

و لك أن تتخيل الفضل ، أن يلقب شخص بأنه فقيه الملة !

و أنه ناصر السنةناصر سنة الرسول صلى الله عليه و سلم !

فكيف يجزيه ربه !

و كيف يتلقاه الرسول صلى الله عليه و سلم يوم القيامة عند الحوض !

نسأل الله أن يكون تقبل منه صالح العمل و أن يرحمه رحمة واسعة

ولد الشافعى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بحوالى
مائة و أربعين سنة فقط

فقد ولد سنة مائة و خمسين للهجرة الميمونة ...

ولد مجاورا لأرض مباركة ...

أرض وضح القرءان بركتها مرات ...

(الأرض التى باركنا فيها للعالمين)

ولد فى فلسطين الحبيبة السليبة

ليضيف لها فضلا على فضلها

و تضيف له فضلا على فضله

ولد فى غزة الأسيرة الكسيرة ...

شرفا و عزاءا لأهلها

و عارا لا يمحي لمن بعدهم أن يفرطوا فيها ..

و سبب ولادته خارج مكة هو أن والده رحمه الله سافر من
مكة إلى غزة قبل مولده ، لطلب الرزق

و الله أعلم

و لكن توفاه الله تعالى

فنشأ الشافعي يتيما شبها جديدا بالحبيب صلى الله عليه وسلم ...

يتميما فقيرا

ربما ليكون قدوة و عبرة ...

فليس لأحد حجة ، فها هو اليتيم الفقير

يجتهد و يصبح كالبدر المنير

و لننظر للمرأة القدوة ، التي أثبتت كيف تكون المسلمة المتميزة الأسوة

إنها أمه ..

شريكته في الفضل ... فلها فضل بعد الله تعالى على الأمة كلها ... جزاها الله خيرا .

فهي من أسس و ربي و وجه وصبر ...

● أمه لم تكن امرأة سلبية و لا تافهة لاهية □

و لم تكن تحيا حسب الحال ..

و لا تهمها الراحة و الإباحة !

و لم تكن طائشة كنساء القوم ... □

و فهمت الإسلام كرسالة ،

و وهبت نفسها و ابنها للحق كقضية و أمانة ... □

• سيدة بحق ! □

□

• شابة ناضجة ... قراراتها صائبة □

عرفت أين تضع قدمها ...

ترملت باكرا ...

و وعيت ما هنالك ... فنظرت بعين صدق

• مؤمنة نقية الثوب ، و لتتظر معي ... □

لتحدثك فعالها عنها .. □

فلها مواقف عظيمة جدا ، كانت سببا مساندا في ما وصل له

الشافعي من خير □

و فى كل فضل جاد به على الأمة حتى اللحظة بفضل الله
عليه ...

* عادت أمه به من فلسطين إلى مكة ، و هو ابن سنتين ،
بعد وفاة والده رحمه الله ، و أرسلته للكتاب (حلقة التحفيظ)
.... فلم تتركه للهو الصبية فى شوارع مكة ، و لم ترسله
ليتعلم حرفة و يتكسب مع فقرهما ...

و بارك الله فى نيتها ، و أظهر نبوغ صبيها الرائع ...

حيث حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين !

فأى فرحة لأم ترى صغيرها يمهد لها تاجا فى الفردوس !

و له موقف مؤثر ، و هو طفل فى الكتاب

حيث كان فقيرا جدا ، لدرجة عدم توفر مال لدفع أجره الشيخ
المحفظ له !!!!

وكان الشافعي من فرط نباهته يقلد المدرس في غيابه ، و
يقف ممثلاً أنه مشرف على الأطفال !
فيقول التنبهات و يحفظهم الآيات ...!

فرأه الشيخ المدرس ، و أعجب به ، و رضى بأن يجلس
مكانه وقت الحاجة ، كثرن لبقائه طالبا
(فهو عمل بلا أجر مادي) بدلا من دفع مصاريف الكتاب
التي لا يملكها!!

فكان الشافعي يحفظ الأولاد ، و يريح الشيخ ..

... و لك أن تتخيل نفسك فقيرا و يتيما ، لا تملك المصروفات
....و تعمل مع الشيخ ليتركك تحضر الدرس ... يا الله ..كم
أنت عزيز أيها الشرف ..

*** سافرت به أمه الفاضلة للمدينة ، ليتلقى العلم عند
الإمام مالك ، لعلمها أنه أعلم أهل الأرض ...

انظر للقرارات الصادرة من امرأة ! امرأة في قمة الحرية !

لم تتعبين نفسك ، و تسافرين مئات الأميال فى الصحارى و
القفار !

لم تضع أمامها هدفا أن يتكسب لها رزقا ،
أو توظفه خبازا أو كاتباً ، ليتكسب و يريحها من الجوع
والتعب و السفر و قلة النفقة ...

بل كانت تريد له و للأمة الخير ، و تتحمل معه كل أمر ...

رحمها الله تلك هى السيدة الأولى فى عصرها بحق .. الأم
المثالية بصدق ...

* و تمهيدا للقاء الإمام مالك

حفظ الشافعى و هو صبى كتاب الموطأ كله !! وهو ابن
عشر سنين ، لأنه خشى أن يرفضه الإمام مالك لصغر سنه ..
فأحب أن يتميز بشئ ، ليجعل الإمام يقبله طالبا و يعتنى به !

و إليكم القصة

طلبت له أمّه النابغة طلباً من والي مكة ، ليس وظيفة لابنها
الفقير النابه سليل الحسب ...

بل سألته أن يرسل رسالة توصية ليهتم به مالك رحمه الله ،
و يتبناه علمياً ، لله درك يا أم محمد !

فأرسل والي مكة مع الشافعي (وهو غلام صغير)

رسالة إلى والي المدينة.

فلما وصلت الرسالة إلى والي المدينة وقرأها قال:

يا فتى : إنّ مشيي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافياً
راحلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك !! فلست أرى
الذل حتى أقف على بابه !. ((يعني الإمام مالك ليس عنده
محاباة و لا يهمله أنى والي المدينة أو غيره ، فهو عزيز
النفس و صارم جداً))

فقال الشافعي : أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه
ليحضر ((يعني أرسل له يأتيك هو لدار الإمارة)).

فقال الأمير: هيهات ، ليت أني لو ركبتُ أنا ومن
معي ، و أصابنا من تراب العتيق (يعنى تعفرنا من تراب
الحي ، حيث يسكن مالك رحمه الله)

نلنا بعض حاجتنا.....!!! (يعنى ليس هو من النوع
المهروول ... و يا ليتة لو رحت إليه لبي طلبى !!! فكيف تظنه
يأتينى هنا)

و فى النهاية واعدده على الذهاب إلى مالك فى وقت العصر.

ويروي الشافعي فيقول :

وركبنا جميعاً ،

فوالله لكان كما قال ،

لقد أصابنا من تراب العتيق (تعفرنا) ، فتقدم رجل منا

ففرع الباب ، فخرجت إلينا جارية سوداء ، فقال لها

الأمير: قولي لمولاك أني بالباب.

فدخلت ثم

خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام و يقول

إن كان لديك مسألة فارفها في رقعة يخرج إليك

الجواب ((يعني اكتب ورقة و سادخلها و أخرج لك
الجواب !! ... يعني لا تأخر عن فتوى و لا كتمان لعلم))

و إن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس

(موعد الدرس) فانصرف...

((و الشرع لا يمانع من رد الزيارة لأي سبب خاص)) (و إن
قيل لكم ارجعوا فارجعوا)) وخاصة رفض الخلطة بالكبراء
منعاً للشبهة ...))

و كان مالك رحمه الله حازماً مهيباً ، و لا يقبل إزعاجاً و لا
تضييعاً للوقت)

فقال لها الأمير : قولي له إنَّ معي كتاب والي مكة إليه في
حاجة.

فدخلت وخرجت ، و إذا بمالك قد خرج ، و عليه المهابة
والوقار و هو شيخ طويل ،

فأعطاه الوالي الكتاب المحتوى على التوصية ، فطفق يقرأه
فلما بلغ إلى هذا: " إنَّ هذا رجل يهمني أمره وحاله
فتحدثه ... وتفعل ... وتصنع ... ".

فرمى مالك الكتاب من يده ثم قال :

سبحان الله

أوصار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالرسائل
!!!?

(بالواسطة و بالتعليمات)

قال الشافعي : فرأيتُ الوالي قد تهَيَّب أن يكلمه فتقدمتُ و
قلت:

" أصلحك الله ... إني رجل مطلبيّ من بني المطلب ، وحدثته
عن حالتي و قضيتي ، فلما سمع كلامي نظر إليّ ... (و كان
لمالك رحمه الله فراسة فهو مالك بن أنس !)

فقال: ما اسمك ؟

قلت: محمد،

فقال: " يا محمد إنه سيكون لك شأن من الشأن ،
إنَّ الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه
بالمعصية .

إذا جاء الغد تجيء مصطحباً معك ما

تقرأ به " .

وطلب منه أن يأتي بمن يقرأ له كتاب الموطأ لصغر سنه ، و لكن الشافعي جاءه في اليوم الثاني ، و بدأ يقرأ عن ظهر قلب والكتاب معه .

وكلما قرأ قليلاً شعر بالهيبة من الإمام مالك ، وأراد أن يقطع القراءة ، ولكن الإمام مالك أعجبه قراءته المتقنة ...

فقال: زد يا فتى ،

حتى قرأ عليه الموطأ في أيام يسيرة.

و هي فرصة العمر أن يكون مجازاً ضابطاً لكتاب السنة الأعظم بعد كتاب الله في وقته (الموطأ) على يد من جمعه و كتبه بيده في عشرات السنين ...! بل أفضل من أي دكتوراة في زمان الشهادات ..

قال مالك رحمه الله عنه:

ما يأتيني قرشي أفهم من هذا الغلام ،

وقال :

إن يك يفلح فهذا الغلام !

يا الله ..

كيف فهمتها يا إمام ...أحدثت انت ..أملهم أنت ..أكشفت الأستار !

مالك يسمع الكلمات ، و يرى بريق عين الغلام ..

إنه مالك كأنه يرى بنور الله ...

و صدقت فراسة المؤمن ..

مالك رحمه الله ..

ولازم الشافعي مالكا تسعة أعوام ...

رحمهما الله

نور مع نور ...

نعم النشأة يا ابن ادريس

هنيئا لك بأمك

هنيئا لك بنفسك ، ما أقعدك يتمك باكيا بأنسا

هنيئا لك بمعلم لم تر الأرض مثله في زمانه ...

إنه مالك يا أحباب

هو من قيل فيه

ارو الحديث المنتقى عن أهله

سيما ذوي الأحلام والأسنان

كابن المسيب والعلاء ومالك
والليث والزهري أو سفيان

فطوبى لمن كان وصفه أنه :
من أهل حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم !
فى زمن يتفاخر فيه الدون بكلام المجون....

• و لم يكتف الشافعى بتلك البعثة تسع سنوات مع علامة
المدينة ، بل عاد الشافعى لمكة و تعلم على يد علامتها
سفيان بن عيينة ، بعد وفاة الإمام مالك !

وكما تعلمنا فى الأثر :

((منهومان لا يشبعان .. طالب علم و طالب مال (...))

فنعم النهم لو كنت طالب علم .. و بئسه لو كنت تطلب المال
لتتفقه فى الدنيا

فكما نعلم من الأثر المضىء :

الدنيا دار من لا دار له

و مال من لا مال له

و لها يجمع من لا عقل له ..

**و فى سنين الدراسة كان الورق غالى الثمن ، والشافعي
وأمه فقراء

فيروى أنه كان يلتقط العظام العريضة ، فيكتب عليها ، أو
يذهب إلى الديوان فيجمع الأوراق المهملة ، التي يلقي بها
فيكتب على ظهرها.....!!

و لا تعليق ...

فلننظر فقط لما نحن فيه ، لتتعلم كيف تكون الرجولة و
الجدية ...

* فهم الشافعي أن اللغة أصل فى فهم القرءان ، و فهم أن
أصح لغة لم تحرف هى لغة قبيلة من القبائل هى هذيل ،
فابتعث نفسه فى بعثة إليهم ...

فى الصحراء !!

(بعثة بلا راتب و لا بدلات ، و ليست فى مدينة بخدمات
عالمية)

و مكث بينهم ... صابرا مرابطا مؤدبا
ليسمع من نطقهم و بلاغتهم و سليقتهم ...
و يتعلم كيف يكون فصيحاً ..

مضحياً بوقته و ماله و جهده ...

و لا وظيفة تنتظره !

بل غربة فى الله و لله ...
و نعم الغربة ...

فما بالنا نستوحش وسط الزحام و العرق ...

مكث الشافعى عشرة أعوام مع القبيلة الأصيلة ، عكف
خلالها على دراسة اللغة و آدابها ، و حفظ الشعر (حفظ أكثر

من عشرة آلاف بيت) كما تعلّم الرماية و الفروسية وبرع
فيهما.

وروى الشافعي عن نفسه فقال :

كانت همّتي في شيئين، في الرمي والعلم ، فصرتُ في الرمي
بحيث أصيب عشرة من عشرة " . وسكتَ عن موضوع العلم
تواضعاً ، و هو من هو !

فأين من يتكبرون !

- و لم يكتف الشافعي !

بل رحل إلى بغداد ليتلقى عن مدرسة الرأي !!!

فلننظر للهمة

و لنبك على أنفسنا !

ما بالنا حبستنا الوظائف و العلائق و العوائق

* صوته في قراءة القرآن و خشوعه :

لم يكن الشافعي فقط حافظا متقنا ، و لا دارسا
فاهما ...

بل كان له قلب كبير ، يشعر بالقرءان كرسالة روحية أيضا ،
و تهتز أضلعه و تغرق دموعه وجهه و لحيته ...

و من الله سبحانه عليه بصوت مؤثر ،

و بخشوع لا يوصف ..

فنعم العلم مع الخشية ..

أين البكاء بجوف الليل يا أمة حق لها أن تبكى لكل سبب و
حال !

قال بن نصر رحمه الله :

كنا إذا أردنا أن نبكي قال بعضنا لبعض :

قوموا إلى هذا الفتى المطلبى (الشافعى) يقرأ القرآن ، فإذا
أتيناه (يصلى في الحرم) استفتح القرآن حتى يتساقط
الناس !!، و يكثر عجبهم بالبكاء من حُسن صوته ، فإذا
رأى ذلك أمسك من القراءة.....

(يعنى كان يستحى و يخشى الرياء ، و يخشى حب الظهور
على نفسه) .

و يحضرنى قول الشاعر

طوبى لعبدٍ لمولاهُ إنابتهُ
قد فاز عبدٌ منيبُ القلبِ أواهُ

كم من فتىٍ قد دنت للموت رحلتهُ
وخيرُ زاد الفتى للموت تقواهُ

وكلُّ ذىِ أجلٍ يوماً سيبلغهُ
وكلُّ ذىِ عملٍ يوماً سيلقاهُ

* عبقريته

إيكم أقوال من رأوه من معاصريه ، و هم من هم من عباقرة
الدنيا يمدحونه ، فكيف يكون هو !! :

ما رأيت أحداً أعقل من الشافعى

لو جمعت أمة لوسعهم عقله.

كرمه :

لم يكن علمه و خشوعه بلا جود و فضل و سخاء !

* قال ابن عبد الحكم رحمه الله :

كان الشافعي أسخى الناس بما يجد.

و قال الربيع رحمه الله :

تزوجت فسألني الشافعي كم أصدقته؟ قلت: ثلاثين ديناراً
عجلت منها ستة ، فأعطاني أربعة وعشرين ديناراً...

تأليفه لكتابه " الرسالة " وأهميته:

أصبح من عادة الشافعي أن يجلس في الحرم عند بئر زمزم ، حيث كان يجلس الصحابي الجليل شيخ المفسرين عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

فلم يكن له دار فخمة و لا قصر منيف ...

و لا قاعة محاضرات ، بل بركة الموضع و تواضع العالم ...
يجلس أمام الناس يكتب و يقرأ ...

وبدأ الشافعي يؤلف في مكة رائعته التي كرمه الله بها و هي كتابه " الرسالة " ،

وكان قد اشتهر في هذا الوقت في مختلف أنحاء البلاد...
فيأتيه طلاب العلم

وكان منهم العلامة الباحث عن الحق : أحمد بن حنبل
الذي كان تلميذاً للإمام ابن عيينة إمام الحديث في عصره في المسجد الحرام.

و لكن الإمام أحمد اهتم بالسمع من فقه الشافعي

و ترك مجلس ابن عيينة !!

فلما سئل عن ذلك قال:

إنك إن فاتك الحديث بعلو تجده بنزول ، و لا يضرك ذلك
(يعنى كونى راويا لن يوثر فى كثيرا أن يموت ابن عيينة ،
فأروى الرواية ممن سمعها منه لاحقا ، فالنصوص باقية
معهم)

أما إن فاتك عقل هذا الفتى - يقصد الشافعي- فإني أخاف أن
لا تجده إلى يوم القيامة ، ما رأيتُ أحداً أفقه بكتاب الله تعالى
من هذا الفتى القرشي...

و كان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول :

كان الفقه مقفلاً على أهله ، حتى فتحه الله للإمام

الشافعي !

*و من عبقريته

قال الحسن بن محمد :

كنا نحضر مجلس بشر المريسي (رجل مبتدع معتزلي
قدري ، و لكنه بارع فى المناظرة ، فيشد الناس و يفتنهم
بلسانه) و كنا لا نقدر على مناظرته ،

فسألنا أحمد بن حنبل ، فدأنا على الشافعي ،

فسألنا الشافعي شيئاً من كتبه ، فأعطانا الشافعي كتاب
(بحث فقه) اليمين مع

الشاهد ، فدرسته فى ليلتين ، ثم غدوت على بشر
المريسي ، وتخطيت إليه فلما رأني قال : ما جاء بك يا
صاحب الحديث؟

قال الحسن : ذرني من هذا،

ما هو الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟

فناظرته فقطعته ...

فقال: ليس هذا من كيسكم ، هذا

من كلام رجل رأيته بمكة معه نصف عقل أهل الدنيا.!!!!

وكان بشر المريسي لما رأى الشافعي المفتي في

مكة يحدث قال لأصحابه المعتزلة : إني لا أخاف

عليكم من أحد ، و لكني أخاف عليكم من هذا الفتى

فإنَّ معه نصف عقل أهل الدنيا.!!!

(و الفضل ما شهدت به الأعداء !)

قال أحمد بن حنبل عن نفسه :

هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي (يعنى معظم
فقهى و علمى جعله الله سببا فيهما) ،

ما بتُّ مدة أربعين سنة إلا و أدعو الله للشافعي !

يا الله .. لله درك يا أحمد

نعم الوفاء و نعم التواضع و نعم الأدب ...

تنسب جل ما أنت فيه للشافعي!

المتحدث هو أحمد بن حنبل!!!

العقل! و القلب! و النفس!

لا يأحد يرفع أنفه حين تقول ابن حنبل ...

قمة من قمم التاريخ ..

يقول عن الشافعي تلك المقولات ...

فلله درهما

* و في يوم نزل الشافعي ضيفاً عند أحمد بن حنبل ، وكان الإمام أحمد يتهدد ، و يطيل في صلاة القيام ، و أخذت ابنة الإمام أحمد تتطلع لغرفة الشافعي رحمه الله متشوقة لترى

كيف تكون عبادته ! و هو أشهر الفقهاء
و تقارنه بوالدها العلامة الشهير ..
. فرأت غرفة الشافعي بقيت مظلمة ، و لم تشعر بأى حركة !
و لم تسمع تلاوة طويل الليل كما توقعت !

فقلت لأبيها: أهذا هو الشافعي ؟

فلم يجبها ، ولما دخل على الإمام الشافعي قال :
كيف كانت ليلتك يا أبا عبد الله ؟

فقال له: لقد تفكرتُ الليلة في بضع آيات من كتاب الله
تعالى ، و روايةٍ في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ،
فاستخرجتُ منها فوق الستين حكماً!!!

فقال الإمام أحمد لابنته:

لضجة واحدة من الإمام الشافعي خير من صلاة أبيك الليل
كله!!

و لم تكن تلك هى القاعدة طبعاً ، بل كان يتبتل و يتهدج بشكل
جعل المعاصرين ييأسون من اللحاق به فى عبادته و تتسكه
!

لو لم يكن هناك ما يشغله من تفكر فى العلم ، و التفكير
عبادة كما نعلم ...

فمن نوافله التى وردت فى ترجمته و مناقبه :

أنه كان يقسم ليله إلى ثلاثة أقسام :

ثلث ينام فيه ، و ثلث يكتب فيه ، و ثلث يصلي فيه التهدج !

فمتى تنام يا أبا عبد الله ؟

يا نورا من أنوار الأمة ؟ (قليلا من الليل ما يهجعون)

- وكان الشافعي رحمه الله يقدر علم أحمد بن حنبل بالحديث و صحته ، و يقول له : إذا صح عندك الحديث فأخبرني عنه
- فنعم الصداقة و نعم الصديق ..
- و نعم الجو العلمي الرباني ..

- وسافر الشافعي لمصر ، و فيها كان مؤلفه الكبير " كتاب الأم "

و كان يدرس فيها في مسجد تاج الجوامع

● فيدرس كل العلوم للطلاب !

● كأنه موسوعة شاملة

- مجموعة من العلماء جمعت في شخص واحد ...

يدرس

- علوم القرآن
- ثم علوم الحديث
- ثم علوم اللغة وآدابها ..!!!!

طيلة النهار

سبحان الله

ما أروع العلم ، و ما أشد جلدك و صبرك بلا راتب و لا أجر
مادى !

إن المكارم أخلاق مطهرة

الدين أولها و العقل ثانيها

و العلم ثالثها و الحلم رابعها و الجود
خامسها و الفضل سادسها

و البر سابعها و الشكر ثامنها و الصبر
تاسعها واللين باقيها

و فى مصر كتب كتابه (الرسالة) ثانيا منقحا .

و أعاد النظر فى اجتهاداته

فمن هنا نسمع كلمة :

قاله الشافعى فى القديم ...

يعنى فتوى قالها فى اجتهاده الاول فى كتابه " الحجة " حيث ألفه فى العراق

وإذا قيل :

مذهب الشافعى الجديد ، فيراد به أقواله فى مصر ،
المجموعة فى كتابه " الأم "

** كان الشافعى من العاملين بعلمهم كما قلنا ،

فجند نفسه فى سبيل الله للحراسة على الحدود

حيث رابط فترة فى الثغور بمصر

لكى يكون فى طليعة من يصدون أى هجوم غادر للعدو ، و
ينال شرف الرباط .. فلا يكون هناك باب من أبواب الخير إلا و
له فيه سهم و نصيب !

رغم أنه لو قال أنا عالم و لا يوجد من يسد مكانى لو
خرجت ، لما لامه أحد ..

لكن هيهات ..

تريد الشافعى أن يتكاسل !

لقد نور الله بالعلم صدوراً

فأبت أن ترضى بالدنا مقبلاً

- وفي آخر عمره رحمه الله مرض و اشتد به الإمتحان ،
ربما ليكون قدوة للمرضى و للأصحاء ...
- و يقطع الحجج على أهل زماننا و من تلاهم .
- و لترتفع درجته فى السماء ، نحسبه على خير و الله
حسيبه ..
- و لا نزكيه على الله ...
- حيث أصيب بالبواسير ، و كان النزيف شديداً ، حتى
قيل إنه ربما ركب الدابة فسال الدم من عقبه....
-
- وكان يضع طستا تحته ، و فيه قماشة لتمتص الدم ...
و هو يكتب و يقرأ و يشرح !! هو وصف من
عاصروه و تشرفوا برؤية مناضل من الزمن الجميل
بأهله ...
-

و رغم تلك المكابدة و الصبر الجميل و القدوة فى الرضا ..

فقد كتب فى سنين مرضه جملة عظيمة من رسائل فقهه و

اجتهاده الجديد ... بل واصل الدروس و المطالعات

و ترك ثروة علمية فى تلك السنوات الاخيرة ، لا تقدر و لا
يتمنها سوى العقلاء !!

... فلم ينم و لم يخذ للراحة ، و معه الحجة و السبب ..

فلو قال : أنا مريض ، لقالوا له : فلتتقاعد مشكورا ، قد أدبت
ما عليك !

فما بالنا نقعد بلا مرض و لا سبب !

فحق أن يقال فى فضله كعالم عابد قدوة :

● قول الامام أحمد بن حنبل :

● كان الشافعى كالشمس للدنيا ، و كالعافية للناس ،
● فهل لهذين من خلف ! أو عنهما عوض !.

ووضح أحمد بن حنبل أن الشافعى هو العالم القدوة ،
للمائة عام الثانية بعد النبى صلى الله عليه وسلم .. فقال :

• إن الله يقبض للناس في رأس كل مائة سنة من يعلمهم السنن وينفى عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الكذب،

فنظرنا فاذا في رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي،

• وقال :

• لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث

: ما مس أحد محبرة ولا قلم إلا للشافعي في عنقه منة !

(يعني له فضل على كل من تعلم العلم بما له من قواعد أصولية صارت مرجعا و أساسا للفقه)

قال أبو زرعة الرازي :

ما عند الشافعي حديث فيه غلط....!

(الله أكبر كبيرا ... فضل الله يؤتية من يشاء)

درر من أقواله:

• قال الشافعي رحمه الله:

- ما تُقَرَّب إلى الله عز وجل بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم.
- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.
- من ضحك منه في مسألة لم ينسها أبداً.
- من حضر مجلس العلم بلا محبرة و ورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.

* قراءة الحديث خير من صلاة التطوع.

* العلم ما نفع ، ليس العلم ما حفظ.

و قال :

الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة،
والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء،
فكن بين المنقبض والمنبسط.

* كل حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهو
قولى ، وان لم تسمعه منى..... ((يعنى ما لم يصلنى من
حديث ، و ثبتت صحته لديكم ، فاعتبرونى أفئت به و
تراجعت عن قولى ...))

* و قال الشافعى رحمه الله أيضا :

إذا وجدتم فى كتابى خلاف سنة رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) فقولوا بها ودعوا ما قلته.

فضل كتبه :

قال الإمام أحمد :

صاحب حديث لا يشبع من كتب الشافعى.

. قال الجاحظ :

نظرت فى كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا فى العلم ، فلم أر
أحسن تأليفا من الشافعى ، كأن كلامه در الى در

(يعنى لؤلؤ متجاوز فسبحان الله).

.....

لعل الله تعالى يوقظ همة أحد قرائنا ، فيبحث و يلتقط تلك
الدرر ، ليعيد تقديمها للأمة

العطشى ...

لحظة وفاته:

قال المزنى (و هو صاحب الشافعى رحمه الله) :
دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه،

فقلت: يا أبا عبد الله كيف أصبحت ؟ فرفع رأسه،

وقال :

أصبحت من الدنيا راحلا

ولإخوانى مفارقا

ولسوء عملى ملاقيا

وعلى الله واردا

ما أدرى !

روحى تصير الى جنة فأهنيها ، أو الى نار فأعزيها...

ثم بكى ، و أنشأ يقول :

و لما قسى قلبى وضافت مذاهبي *** جعلت رجائى دون عفوك سلما
تعاضمنى ذنبى فلما قرنته *** بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم *** تزل تجود وتعفو منة وتكرما

....

اللهم ارحمه رحمة واسعة
صلى الإله على النبي محمد
ما ناح قمري على الأغصان

وعلى جميع بناته ونسائه
وعلى جميع الصحب والإخوان

من المراجع الكثيرة التى تالأت بسيرته

سير أعلام النبلاء للذهبي
تذكرة الحفاظ للذهبي
صفة الصفوة لابن الجوزي
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر
الانتقاء لابن عبد البر
حلية الأولياء لأبى نعيم

من أنا حتى أكتب عن أحمد .. روائع أحمد بن حنبل

د . إسلام المازني

الحمد لله رب العالمين

اللهم صل على محمد

و على آله و صحبه و سلم .

من أنت يا ابن حنبل ؟

أرجل مثل بقية الرجال ؟ أم أشباه الرجال ؟

أشيخ عاش ثم قضى نحبه ؟

أحمد يا إخوان لم يكن هملاً ، بل كان عالماً ، كان بطلاً ... كان آية .. كان فذا

إذا المكارم في الدنيا أشيد بها*** كانت كتاباً ، وكنا نحن عنواناً

إن الحياة نهار أو سحابته*** فعش نهارك من دنياك إنساناً

لم يكن قلبه يهوى قسماً أنثى يراها البداية و النهاية ، و لم يكن صدره يتزلزل
بنبض سوى الحق ، كان عقلاً مفكراً يدرك أين شاطئ النجاة ، فصار شمعة
لا مثيل لها في روعة الضوء ، و حلق كعصفور أخضر يجمع السنة من كل
روض مزهر و يدون لمن يأتي بعده ، لنا

ليترك أربعين ألف حديث شريف ، كأنها الجَنَّات و النهر ، في موسوعة لمن
طلب أطيب الخبر ، بلا حقوق نشر و لا ربحية !

تحلى أحمد بطهر الوجدان و حب الخير ، فلم يكره سوى الباطل و المبطلين ،
فكانت حياته قصة و عبّرة تروى كفاح إنسان حمل في أعماق صدره طهر
حب ربه ، نحسبه و الله حسيبه

لم يعرف الصمت ، حين نادى الحق لبي ، فانطلقت المعاني كالدرر تنير الأرض
المستديرة كلها رغم المشقة ...

أحمد بن حنبل هو رجل المائة الثالثة ، شهد له الجميع بأنه عالم ثقة إمام
ورع ، أمة وحده ، سيد في الثبات و الصبر .

مولده و نسبه:

ولد الإمام أحمد عام ١٦٤ هجرية في بغداد التي ينتقم منها الحاقدون لأنها
كانت منارة للسنة ..

فبعثوا كتبها و أحرقوا تراثها و مخطوطاتها ، بعد أن اغتصبوا مالها و افترسوا
أهلها ...

و توفي الإمام أحمد عام ٢٤١ هجرية

كان عمره عندما مات الشافعي - رحمهما الله - يقارب الأربعين ، كأن الله
تعالى تركه للأمة من بعده بعد أن بلغ أشده و استوى !

حيث كان الشافعي يكبره بأربعة عشر عاما رحمهما الله تعالى .

شيخنا أحمد عربي من شيبان

يلتقي نسبه مع الرسول عليه الصلاة و السلام ، عند الجد نزار بن معد .

فهو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد ..إلى مازن بن ذهل بن شيبان .

تيم صغيرا ليصير مثلا كبيرا !

و يمسى حجة على من يتذرع باليتم و الضعف و الفقر ، ليعيش الخور و

الكسل و العجز ...

و تولت أمه الطيبة تربيته الفريدة المثل

فكانت نعم الأم ، و نعم المربية و نعم السيدة الفاضلة ...

لم تنتظر من ينير لها الطريق ، كان منيراً بيقينها و ذكائها ، لم تكن حاملة ترى

الحياة شوقاً لرجل يمتطي سهوة الخيال ، بل كانت تسبح في الغسق وتشعل

الدجى ترانيماً حسنة ، كان حب الله يحدوها و هى قهب ابنها الفتى اليتيم لله

تعالى ..

و المدد لم يكن مالا و لا متاعا ، بل كانا فقيرين ، و لم يحدوها حلم ببذلة تحتويه

و شهادة يوم يتخرج كما المثاليات فى زمن التلفاز

بل كان البيع لخير من ذلك ،

كانت تصنع منه آية !

يقف وسط الوحوش صامدا في المحنة ، لا تتبعثر نفسه بين الرغبات و الرهبات

..

فهي سيدة من زمن القمم ، لم تلتزم فهجنا و ذات السلوك الرتيب ، و لم تتعب
نفسها في حفظ أبجدية التساوى مع الرجل و التنافس مع الذكر كأنما خلقنا
للتناطح كالكباش !

... و لا تسعى لخروجها مكشوفة ليقال حرة !
و لم تر تربية الأبناء ليست عملا ... فيقال لمن خرجت عاملة و لمن جلست أين
عمل المرأة !

بل كانت تعمل ... و انظر إلى عملها و عملنا !

هي ربت أحمد !

و خرج ليسطع في الدنيا حتى الليلة !

نحن عالة على كتبه حفظ لنا السنة و الفقه

و تحمل ليصلنا الدين نقيا

تحمل الجوع و البرد والسوط و السيف !

كانت أمه معه يوما بيوم ، تصنع الرجل القادم ... فجر النور ، و لم تعش
الجنون كطائشات القوم

تمنت أن ترتقى و ارتقت ، و جدير بها أن تسعد لأنها رأت أحمد نورا للدنيا ،
يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصمت الخلق انبهارا من الحديث و
المحدث و من المتحدث عنه !

حتى و هو صبي كان سلوكه يدل على نعمة الله بمثل تلك الأم المسلمة ...

* قال أبو سراج بن خزيمة - وهو ممن كان

مع أحمد بن حنبل في الكتاب صغيرا - إن أبي جعل يعجب من أدب أحمد

وحسن طريقته، فقال لنا ذات يوم :

أنا أنفق على أولادي وأجيئهم بالمؤدين على أن يتأدبوا، فما أراهم يفلحون،

وهذا أحمد بن حنبل غلام يتيم ، انظر كيف يخرج ؟

و جعل يعجب .

* وكان الهيثم بن جميل بفراسته يقول عن أحمد :

أحسب هذا الفتي - إن عاش - يكون حجة على أهل زمانه

و يكبر الصبي النابه ...

ها هو أحمد في المسجد ، لا يتكلم بل يسكت ،

فتعمر القلوب بالنظر لسمته ، و ينساب الهدوء بين الحنايا مع دمعته الرقيقة

الخاشعة

فكيف لو تكلمأرأيتم الأم المربية حين تنتج جيلا مسلما ! رحمها الله رحمة واسعة و رضى عنها ...تحملت الفقر و ضحت بالشباب لتكون متفرغة لابنها النابغة ، و لم تعش أرملة ميتة على أشلاء أمل قديم .

و كان أحمد وفيها لأمه ، لدرجة أنه خشى أن تزعجها سيدة أخرى بأى منغصات، فلم يتزوج حتى توفيت ، و هو فى الثلاثين من عمره .

كانت البداية بزرع الورد الذى لا يذبل

بالكتاب المقدس المكرم المطهر

فأعانتته أمه المثالية على تعلم القرآن المكرم ، تلاوة و حفظا ، حتى لبس تاج البهاء ... و وعى ابنها الذكر فى صدره و ختم القراءان حفظا ..

و فى الخامسة عشرة دخل حلقات العلماء ليشرب من نهر السنة العذب السلسبيل

فجلس فى مجالس الحديث الشريف

حتى سمع ما ببغداد كله !

فقرر أن يجوب الدنيا ، و يركب البحر و يشرب الصبر ليجمع كل كلمة قالها الحبيب صلى الله عليه سلم ، و يحققها (سندا و متنا) ، فيتأكد من صدق ناقلها عدلا ، و يسمعها بنفسه منهم بلا واسطة ، فيعلو به النقل و التوثيق

العلمى التاريخى ، فلا يكون بينه و بين النبى صلى الله عليه وسلم إلا أقل عدد
ممكن ، كى لا تشوب النقل شوائب !

لا يهم الوقت

لا يهم الجهد

لا يهم التعب

لا يهم البرد

لا يهم المطر

فى سبيل الله نحيا

مع الحب نخلق

نشرب العلم نديا

قشعريرة السعادة فيها الدفء المطلوب ...

يرحل الشاب المجتهد المناضل فى سبيل السنة الشريفة ، حتى يذهب إلى شتى

أركان دولة الخلافة الكبرى ...

إلى الشامات والسواحل ..

ومكة والمدينة

و باقى الحجاز واليمن

لفارس و خراسان

صعد الجبال ، و وصل الأطراف ، ثم زار الثغور فى مرمى العدو ..

كى لا يترك إرثا طاهرا عبقا ، و لا رجلا فاضلا معه خير دون أن يلقاه و يدون
و ينقح ..

جولة حول العالم من أجل الحق ، و الحق وحده يا أحمد ...

للحق قمت ، تعب اختيارى !

بقرار حر شجاع ، ثم صمود لا يلين مع الريح ،

و لا تبدده الشهوات و التبايح ، و لا يغرقه بحر الكسل الفسيح

شهد له الكل و كتب عنه الجميع

فلم يكن أسطورة و لا مبالغة ، بل ترك أثرا ماديا ، و خلف صحبا كراما زكوه
فى كل مصر طاف به ...

من شيوخه الفضلاء :

من التقى بهم فى الري الإمام عليّ بن مجاهد حيث رحل أحمد إليه عام ١٨٢ هـ،
وهي أول سنة رحل فيها فى طلب العلم ، وسمع من الإمام جرير بن
عبد الحميد فى الري أيضا ، رحمهم الله جميعا .

ورحل إلى البصرة عام ١٨٦هـ في طلب الحديث ، وخرج إلى الكوفة في طلب الحديث

فأصابته حمى فعاد إلى بغداد!

لا

لم يقرر الكف بسبب المرض ، و قد تعلم من علمين فحق له أن يجلس ليفتى و يدرس في المسجد و لا داعى لمزيد من السفر و الأمراض ... لا ، بل نحتسب و

نكمل المسيرة

طهور يا أحمد

طهور إن شاء الله ...

و قال أحمد بن حنبل :

دخلت عبادان سنة ١٨٦ هـ.

و دخلت البصرة خمس دخلات ! و ذلك ليسمع من محدثيها ، فلم تكن سفرة سياحة المعصية و لا تجارة دنيوية ...

و حضر فيضان دجلة الكبير عام ١٨٦ هـ في أيام الرشيد الذي اضطر الرشيد بسببه إلى التزول بأهله إلى السفن. ومنع والي بغداد (السندی بن شاهك) الناس من العبور إشفاقاً عليهم (والى يخاف على الرعية ...!) ، فأقام أحمد بن حنبل - تلك الفترة فقط - لا يستطيع الرحلة من أجل العلم ! لم يمنعه إلا الفيضان تلك هى الأعذار المقبولة يا أحباب .

* لقي أحمد الشافعي في أول رحلة ، و في أطهر بقعة ، في الحرم بمكة المكرمة ، و علم أحمد قدر الرجل ، و تلقى عنه الفقه و هو معرفة الأحكام المفصلة لكل جزئية ، و أصول الفقه و هي قواعد فهم الدليل و استنباط الحكم الشرعي ، و كان أحمد ابن حنبل و فيا للشافعي رحمه الله ، حتى روى عنه أنه مكث أربعين سنة ما بات ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي.

و كان يقول

إنَّ الله يبعث على رأس كل أمة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها...

لقد أرسل الله تعالى عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الثانية ، و آمل أن يكون الشافعي على رأس المائة الثالثة!

و رشح الشافعي عند الرشيد لقضاء اليمن فأبى أحمد و قال له :

جئتُ إليك لأقتبس منك العلم

و كان ذلك في آخر أيام الرشيد.

ورشح الشافعي الإمام ثانياً لقضاء اليمن عند

ال خليفة الأمين العباسي فأبى أحمد ، و كان ذلك عام ١٩٥ هـ.

فهو لا يريد منصبا و لا شيئا يشغله عن مهمة حفظ العلم و بثه ... و ليس لا

هنا ليكون مستشارا له راتب ..

و قال فيه الإمام الشافعي :

" خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من ابن حنبل." "

وقال عنه الإمام الشافعي أيضا :

أضحى ابن حنبل حجّةً مبرورةً *** وبحبّ أحمدٍ يُعرفُ المتنسكُ
وإذا رأيت لأحمد متنقّصاً *** فاعلم بأنّ سُورَهُ سُبّهتْكَ

و لم تتيسر لأحمد بن حنبل فرصة لقاء عالم المدينة النبوية مالك بن أنس
فكان يقول : لقد حُرمتُ لقاء مالك فعوّضني الله عز وجل عنه سفيان بن
عيينة !

فأحمد بن حنبل يتحسر ، لا على دنيانا و فومها و عدسها ، بل على عالم علم
جهند لم يره ، و يسلى نفسه و يعزيها في الخسارة ، لا بالنوم و الأمان و
التناسي و تخدير النفس ، بل بعالم آخر رزقه الله لقياه !

أرأيتم التربية ؟

و عرف الشافعي رحمه الله فضل أحمد في الحديث ، فكان يكثر من زيارته ،
فيزداد كل منهما من علم أخيه الرائع

ولما سئل عن ذلك قال الشافعي ، و هو شاعر فذ و لغوى أصيل :

قالوا يزورك أحمد و تـزوره *** قلتُ الفضائل لا تبارح منزله

إن زارني فبفضله أو زرتة فلفضله *** فالفضل في الحالين له

و ورد في كتاب طبقات الحنابلة رحمهم الله :

قال الشافعي لإمامنا أحمد يوماً :

أنتم أعلم بالحديث والرجال ، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني ، إن شاء
يكون كوفياً أو شاء شامياً حتى أذهب إليه إذا كان صحيحاً .
وهذا من دين الشافعي حيث سلم هذا العلم لأهله .

و قال عبد الوهاب الوراق :

ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ،

قالوا له :

وإيش الذي بان لك من علمه وفضله على سائر من رأيت ؟

قال : رجل سئل عن ستين ألف مسألة فأجاب فيها بأن قال أخبرنا وحدثنا ! ..

.

هكذا يا أحباب يكون البحث النافع في ذاكرة الأمة ..

و قال أبو زرعة الرازي :

حزرنا حفظ أحمد بن حنبل بالمذاكرة على سبعمائة ألف حديث !

قيل له وما يدريك قال ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.....

و هو إمام في القرآن كما قال أبو يعلى رحمه الله :

قال أبو الحسين بن المنادي صنف أحمد في القرآن التفسير ، و هو مائة ألف وعشرون ألفاً يعني حديثا ، والناسخ والمنسوخ ، و المقدم والمؤخر في كتاب الله تعالى ، وجواب القرآن وغير ذلك.

و لم تكن الصلة بالقرءان صلة بحث فقط ، فالقرءان حديقة غناء ، قال عبد الله بن أحمد : كان أبي يقرأ القرآن في كل أسبوع ختمتين إحداهما بالليل والأخرى بالنهار.

الله... سبحان الله

خرج أحمد البطل إلى اليمن مستكملا رحلته المباركة الميمونة ، للعلامة عبد الرزاق بن الهمام اليمني ، صاحب الموسوعة الحديثية المسماة بالمصنف ..

و هناك حاول الإمام الكريم عبد الرزاق أن يساعد طالب العلم ، ابن السبيل أحمد بن حنبل بمال من معه ، فأبي إمام أهل السنة ، و أصر أن يتكسب عيشه من عمل يده لينفق على نفسه في رحلته ، فنعمة النفس العيوفة العفيفة ، و هي رسالة لكل عالم و طالب علم (و مفكر) ...

و سافر أحمد متقصيا أثر علامة زمانه عبد الله ابن المبارك ، ليتعلم منه العلم و الخلق و السلوك ... فقد كان ابن المبارك آية عالما عطر السيرة ...

و أشفق ابن المبارك على الداعية الرحال المناضل ، و أراد أن يساعده أيضا
بمال ، كما حاول قبله العلامة عبد الرزاق ، و لكن الإمام أحمد اعتذر عن
قبول المساعدة ...

و قال :

أنا ألزمك لفقهك وعلمك لا لمالك.

حج الإمام أحمد خمس مرات إلى بيت الله تعالى ، منها ثلاث مرات ماشيا !
لقلة ذات اليد

فسبحان الله على النشاط و الجلد و الجدية في العبادة ، كما هي في طلب
العلم

فليسمع من كبرت بطونهم و ترهلت أجسادهم من كثرة النوم و الأكل و
الكسل ،

و ممن وهنت عظامهم قبل أن يخوضوا غمار

رحلة ربانية واحدة ، ممن يأكلون الطرى و يشربون شرب الهيم ... عودوا
أنفسكم الخشونة و الرجولة .. و أمامكم الطريق

كما قال شوقي :

هل علمتم أمة في جهلها *** ظهرت في المجد حسناء الرداء ؟

باطن الأمة من ظاهرها *** إنما السائل من لون الإناء

فخذوا العلم على أعلامه *** واطلبوا الحكمة عند الحكماء

واقروا تاريخكم ، واحتفظوا *** بفصيح جاءكم من فصحاء

أنزل الله على ألسنتهم *** وحيه في أعصر الوحي الوضاء

واحكموا الدنيا بسلطان فما *** خلقت نضرتها للضعفاء

عرف المعاصرون أحمد ابن حنبل بأنه محدث متمكن يروى الحديث و يحققه

و بابن حنبل صحيح السند *** و كل شهم في الورى مجتهد

بما لنا قد أوضحوا من مسلك *** يرقى بساليكه أوج الفلك

لكن أحمد كان أيضا فقيها نابها

وما ميز فقهه أنه لم يكن يعمل بالقياس إلا نادرا ، لأنه تيسر له من الأحاديث

ما لم يجتمع لغيره ، فلم يكن هناك ما يدعوه ليقبس و يبحث ، و ليفتش عن

تشابه حكم ليقبس عليه ، حيث انتقى كتابه (المسند) من بين سبعمائة وخمسين

ألف حديث عرفها ، بل كان يجمع ما أثر من قول الصحابة أو من قول تلاميذ

الصحابة ، و هم التابعين ، فهم من تعلم من الصحابة تلاميذ النبي صلى الله

عليه وسلم ، فقولهم أولى و فهمهم أقرب ...

من روضة العلم الصحيح *** وربوة الأدب السليم

العاشقين العلم لا *** يألونه طلب الغريم

المعرضين عن الصغائر*** و السعاية والنميم

و لو لم يجد في المسألة قولاً للتابعين اجتهد و قاس ،
و قد ترك مذهبا ثريا و كتب عنه طلابه آلاف المسائل الفقهية قيل بلغت ستين
ألفا مدونة .

و كان الإمام أحمد يتخرج من الفتوى في أول الأمر حتى اجتمعت لديه ثروة
كبيرة من نصوص السنة، وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم. و لم يتصدر
للحديث والفتوى إلا بعد أن بلغ سن الأربعين، وذلك عام (٢٠٤ هـ) !

و من شيوخه أيضا و أئمة عصره الذين أخذ عنهم العلم النافع ممن حفظ عن
التابعين و الصحابة كل نصيحة العلم العلامة سليمان بن حرب بالبصرة سنة
١٩٤ هـ، و الإمام أبي النعمان عارم في تلك السنة،
و من الإمام أبي عمر الحوضي أيضا ، و الإمام علي بن هاشم بن البريد
و العلم الفاضل الثقة سفيان بن عيينة وإسماعيل ابن عليّة.
و الإمام عبد المؤمن العبسي سمع منه سنة ١٨٢ هـ.
و الإمام عبد الرحمن بن مهدي ، والعالم البطل أبو بكر بن عياش .

ومن حدث عنهن أحمد بن حنبل

من النساء !!

الفاضلة أم عمر بنت حسان بن زيد الثقفي. فلم يكن ديننا متعصبا متحيزا و لم
يمنع امرأة أن تصير محدثة !

و دونك كتاب الزيانب لإبن حجر حيث جمع فيه جمعا طريفا فيه كل من اسمها
زينب من الفاضلات المعلمات فالمرأة الفاضلة يزيد لها الحق فضلا ... و لا
يكبت طموحها ...

هاهم أصحابه يقولون له ، و هم يرونه دوما يطلب المزيد من العلم و دوما
يحمل محبرته و أوراقه و لا يكل ، كالنحلة تجنى الرحيق بلا ملل ...!

يقولون كما في السير :

يا أبا عبد الله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ ، وأنت إمام المسلمين، حتى متى مع
المحبرة ؟

فقال: مع المحبرة إلى المقبرة.

* و في مكة سُرق متاعه وهو خارج البيت يطلب الحديث، و لما عاد قيل له
ذلك، فلم يسأل عن شيء من المتاع ، وإنما بادر بالسؤال عن الألواح التي
كتب فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يطمئن إلا بعد أن
وجدها.

فلم يسخط مع الإختبار الرباني ، و لم يتبرم ...

و لم يشفق على الضائع من الفانية ... فأثبت أن الثمرة أينعت .. و أن الحديث
ليس باللسان فقط .

ها هو عبد الله بن الإمام أحمد يقول :

خرج أبي إلى طرسوس ماشياً، وخرج إلى اليمن ماشياً!

وصف المعاصرون مجلسه فكأنما البركة تحيط و العناية تظلل ، كان كثير التواضع له هيبة ووقار ، و سكينه لا تفارق المكان أثناء الدرس

فحين تحضر الألو ف التي تسمع الرجل الأمة

يشرق الإحساس في تلك القلوب التي تختلف عن قلوبنا ، فلم تسلم القيادة لإعلام و تعليم و ثقافة غبية ملحة تافهة .. و لم تكن تفكر بذات الطريقة التي يملها عليها غيرها ...

فكانت الأوعية تختلف ، فتفتح مناسبة لتسرى المعاني إلى القلب بيسر لا حد له ... من هنا نرى حالنا ، حيث كثر القراء و قل العلماء ..

فلا يتسع الأفق إلا لسماء ملبدة بالحزن ، و يبقى الأمل و الحنين في قلة ترتوي الآن من ذات المعين و تنادي الله تعالى و تسأله سبحانه ، و هم على قلة عددهم و رقة حالهم فهم و رود ، تفوح منها رائحة الأمل الموعد ، لتزكى الهواء كله ...

فترى صغيرهم و كبيرهم رغم العناء و اللأواء يحمل قلباً باسمًا

رحمك الله يا أحمد

قالوا :

نظرة إليه تذكّر الناس و تعظهم قبل أن يتكلم لسانه ...

و كان أحمد بن حنبل مع تلك السكينة رجلاً مبتسماً مؤدباً بشوشاً .

فقل فيه أيضاً :

يلقى الناس مبتسماً و يقدمهم عليه في المشى .

و في قراءته للقراءان يجتنب الظهور و الشهرة فإذا قرأ القرآن ودخل عليه

الناس سكت صيانة لقلبه من المديح ودخول الرياء.

محتته :

عاش الإمام أحمد في عصر الخليفة المأمون ثم المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل .

في هذا الوقت ، كانت فتنة المعتزلة خاصة في عصر المأمون. وكان المأمون

تلميذاً لأبي هذيل العلام من المعتزلة ، و ووقع في برائن الفلسفة اليونانية .

وعين المأمون أحمد ابن أبي ذؤاد المعتزلي وزيراً خاصاً له .

و كان الصدام بين خرافة القول بخلق القرآن ... أي أنّ القرآن حادث مخلوق و

بين الحق الذي مثله أهل السنة متبعين فيه التابعين و الصحابة في فهمهم و

تعاملهم مع الدليل

و أن القرءان هو كلام الله تعالى الأزلي القديم

و لم يكن أهل السنة يسلمون أنفسهم لفلسفة الوثنيين ، و لا يخضعون لها
الشرع و لا يشغلون أرواحهم

و لا يرهقون أنفاسهم خلف بشر يعمل عقله و هلاوسه من عبدة أساطير جبل
الأوليمب !

بل تخفق قلوبهم مع الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم و صحبه الكرام

الطاهرين ، ففي كلامهم تحضر موارد الإيمان ،

و يتبين أهل الشقاء من أهل الحرمان

حسب التأسى بما يقال ، حتى لو جاءت الفتنة و المحنة ، فزادهم هو اليقين بكريم

الإرادة الربانية ، إرادة الرحمن سبحانه التي تدخر الفوز لهم ، فيجعلهم من

الصابرين انتظارا لحسن المآل

و حين اعتنق المأمون هذه البدعة أراد تعميمها و نشرها .. ففي عام ٢١٨ هـ —

أرسل كتاباً إلى نائبه في بغداد وهو إسحاق ابن إبراهيم كتبه وزيره المعتزلى

لكنه بختم المأمون يفرض فيه بدعته و شبهاتها الداخضة الواهية

و أمر المأمون أن تقطع نفقة كل عالم لا يقر بما طلب و رفض العلماء التهديد ،

فطلب المأمون أن يرسل إليه كل معارض مقيداً بالأغلال .

وكان الإمام أحمد من بين الكوكبة التي رفضت أن تقر ، و لم تتراجع تحت تهديد
السيف ، فقيّدوا جميعاً بالأغلال وذهبَ بهم إلى طرطوس. وفي الطريق تراجع
البعض خوف البطش ومات البعض الآخر منهم العلامة محمد بن
نوح العجلي و كان آنذاك مريضاً يرصف في الأغلال ، و توفي ودفن في
الرحلة كأول بطل لقي نجه في تلك المحنة ، ولم يبق إلا أحمد الذي وصله الكلام
صريحا من خادم المأمون قائلا له:

إنَّ المأمون أقسم على قتلك إن لم تجبه.

و لكن أحمد رفض التراجع عن الحق و بينما هو في الطريق لا يفصله عن المأمون
إلا أميال ، إذ جثى على ركبتيه و رمق بطرفه إلى السماء ودعا الله تعالى أن
ينجيه ، فتوفي المأمون قبل أن يصل أحمد إلى طرطوس بسويحات !
و أعيد الإمام أحمد وأودع السجن ريثما تستقر الأمور.

وقال : ظهر لي في الطريق رجل بدوي ، فقلت من هذا ؟ قالوا : شاعر ربيعة
جابر بن عامر ، فأمسك بزمام ناقته وقال : إيه ما بالك يا إمام ؟ ما عليك أن
تقتل في سبيل الله فإنه ليس إلا القتل هاهنا والجنة ها هنا !

وعظه هذه الموعظة ، يقول الأمام أحمد فشدت كلمته في قلبي أيما شد
وثبتتني ، و يشاء الله أن تكون المحنة بعدها ، لما في كل محنة من منح و عبر و
حكم و خير آجل

وجاء بعد ذلك المعتصم و استدعى الإمام أحمد مكبلا ، و حول الخليفة عدد من المعتزلة على رأسهم ابن أبي ذؤاد الذي ظهر من سيرته أنه مع بدعته يكن حقدًا و حسدا للإمام أحمد ،

و ناقشوا الإمام أحمد

و كان واضحا فقال

القرءان كلام الله...القرآن من علم الله و من قال إنَّ علم الله حادث أى مخلوق فقد كفر !

و طلب المعتصم أن يناقشوه و كاد أن يقتنع بقول أحمد رحمه الله ، ولكن سطوة البدعة و أهلها

و وسوستهم غلبت ...

و عرض عليه المال والعطايا ، و لكن الإمام أحمد قال له:

أرني شيئاً من كتاب الله أعتمد عليه (أي أعطني دليلاً على ما تزعم من كتاب الله تعالى). و حذّر المعتزلة المعتصم إن هو أطلق سراحه أن يُقال إنَّ هذا الرجل تغلب على خليفتين اثنتين...

فتركه المعتصم للضرب والتعذيب و السجن الطويل المؤلم .

فكان يُضرب ضرباً مبرحاً حتى يغشى عليه ثم يأتون به في اليوم التالى و يرفض الخنوع .

وقال الإمام أحمد ضربت بالسياط أول يوم فطفقت أعد سبعة عشر سوطا
ثم أغمى علي ولم أدري ما كان من

بعد....!! ومن حضر غُسل الإمام أحمد بعد موته رحمه الله - مع أنه مات من
بعد هذه الحادثة بأكثر من عشرين عاما- شاهد آثار السياط هذه في ظهره
، حيث أن الإمام مات سنة مائتين وواحد وأربعين هجرية والحادثة
سنة مائتان وتسعة عشر هجرية !

و قال الإمام أحمد :

علقت بالسقف من رجلي وبيني وبين الأرض مسافة ذراع فكانوا يعذبونني
على هذه الشاكلة فإنقطع الحبل بي فدكت عنقي بالأرض فأغمي علي ولم أدري
ما وراء ذلك ، وجيء به في اليوم الثالث فلف في حصيرة وظلوا يدوسون
عليه حتى أغمى عليه وفي كل ذلك يقولون له قل بقولنا بأن القرآن مخلوق وهو
يأبي ، فتركه المعتصم لعله يلين ولعله و لعله ، في تلك الفترة وهو في قصر
المعتصم يجيئه بعض تلاميذه الذين يترخصون ، أحد تلامذته اسمه ابن أبي
زهير يقول له أيها الإمام ما عليك أن تجيب فإن لك عيال ولك أولاد
ولك كذا فلو أجبتهم والنية عند الله ، فنظر له الإمام أحمد نظرة مليمة وقال له يا
أبا سعيد إن كان هذا عقلك فقد إسترحت ، فالإمام يدرك أن صموده نصره
للحق

ويجيئه آخر من تلامذته ويقول أيها الإمام ما عليك أن تجيب فيقول له نعم انظر
من خلال الشرفة وأخبرني ماذا ترى فينظر فيقول إني أرى أهل بغداد قد

اجتمعوا كل معه القرطاس والقلم ينتظرون ما تقول به، قال:
أف...أنجو بنفسي وأضل جميع هؤلاء!!!.

وقال بشر بن الحارث الحافي الزاهد العابد المشهور رحمه الله في تلك الأيام وكان
مهابا من الجميع ، كان في تلك الأيام يجمع العامة حول القصر ويجعلهم على
حب أحمد ويقول وهو يمد رجليه ما أقبح هذه الساق ألا يكون فيها القيد نصره
لهذا الرجل ، نصره للإمام أحمد بن حنبل .

و بتلك الصرامة و الحساسية المرهفة و الصمود

زرعت المعاني . فأثمرت تقوى في قلوب المؤمنين من ثبات الإمام أحمد و من
معه من الثابتين الذين سبقوه و قضوا نحبهم في سبيل العقيدة

و منهم نعيم بن حماد الخزازي إمام الحديث بمصر مات في السجن ساعتها
رافضا التنازل ، و البويضي الفقيه بمصر مات في الطريق أيضا
كلاهما قضى نجه ...

و كان هناك علم آخر صمد لا يصح أن ننساه

لكنه لم يعذب لكبر سنه ، هو (أبي نعيم الفضل بن زكين) شيخ البخاري
ومن أئمة الحديث بالكوفة .، جيئ به إلى المعتصم ، و كان شيخا مسنا
تجاوز السبعين فقال له المعتصم أقطعُ عطائك أي راتبك الخارج من بيت
المال ، ، فمد يده إلى ذر ثوبه فَسَلَّهُ أي قطعه ثم وضعه بين أصبعين من أصابعه

ثم رماه على المعتصم قائلاً له والله ما دنيك عندي إلا أهون من ذر قميصي
هذا ، فهاب المعتصم أن يفعل به شيئاً لسنه الكبير و لشهرته

و أقبل أحمد على الناس في السجن يعلمهم ويهديهم.

فأمر ابن أبي ذؤاد بنقله إلى سجن خاص حيث ضاعفوا له القيود

وأقاموا عليه سجانين أغلظ و أشد ،

وكان ينخس بالسيف فتسيل دماؤه الزكية لكنه يصر على الصمود !

ولو كلفه ذلك حياته .

صبرت للحق حين النفس جازعة * والله بالصبر عند الحق موصيها**

و تستمر المحنة و يستمر الصبر

و تكون العاقبة العاجلة و الآجلة ، فالعامة لم يضلوا ، بل ازدادوا ثقة بالحق

لصمود الإمام الحق ... بعد مرور عامين ونصف على هذه المعاناة ، و قد

احترقت قلوب الناس و أوشكت الثورة أن تشتعل في بغداد نقمة على الخليفة

المعتصم و وزيره ، حيث وقف الفقهاء على باب المعتصم يصرخون: أَيْضْرَبْ

سيدنا ! أَيْضْرَبْ سيدنا ! أَيْضْرَبْ سيدنا ! فلم يجد المعتصم بداً من إطلاق

سراحه و أعيد إلى بيته يعالج جراحه.

من الأشعار وهو في السجن:

لعمرك ما يهوى لأحمد نكبة *** من الناس إلا ناقص العقل مُغورُ
هو المحنة اليوم الذي يُبتلى به *** فيعتبر السنّي فينا ويسبُرُ
شجىً في حلوق الملحدّين وقرّة *** لأعين أهل النسك عَفٌّ مشمّرُ
لريحانة القرّاء تبغون عشرة *** وكلّكم من جيفة الكلب أقدرُ
فيا أيها الساعي ليدرك شأوه *** رويدك عن إدراكه ستقصّرُ

فكانت شخصيته رمزاً للصمود والثبات على الحق ورفض تحريف العقيدة و
دحض الأفكار الدخيلة على الإسلام و الهلاوس التي تلوث العقيدة .

ثم تولى الواثق الحكم و هو على نفس النهج البدعي و قتل العلم العلامة أحمد
بن نصر الخزاعي ، و كان قد خرج بأهل بغداد متحديا و مالت القلوب
إليه ، فأمسك به وقال له الواثق دع ما أخذناك له وقل القرآن
مخلوق .. . أقوم فأفك قيودك بيدي وأعفو عنك وأجعلك من خاصتي ، فأبى
فقال له الواثق إذن لا يقتلك غيري فقام الواثق وقتله بسيفه رحمه و
لم يتحرش الواثق بالإمام أحمد ساعتها خشية الفتنة.

ثم مات الواثق وتولى المتوكل خليفة للمسلمين و هو من أهل السنة الميامين ، و
انتهت المحنة و اعتقل الظلمة فأعتقلوا

وبعدما استتب الأمر جاء المتوكل إلى الإمام أحمد وكان هذا سنة مائتان وستة
وثلاثون هجرية فأخرج له أدراج الدولة و دوواين الحكم ، وقال له أيها الإمام
ادرس هذه الأدراج فثبت من شئت و اترك من شئت واصلح أمر
الدولة ، فلبث الإمام أحمد مدة يفتش في الأسماء فما من قاضٍ ضال مبتدع

أو عامل مبتدع أو وائي ظالم إلا وعزله وعين مكانه من أهل السنة والجماعة ،
ولبت الأمر هكذا في عز ومنعة حتى مات المتوكل ومن هنا قال الإمام أحمد...
إنما مثل المتوكل في بني العباس كمثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

و حاول المتوكل أن يعطى الإمام أحمد مالا ليعوضه لكنه رفض شاكرًا !

وروى أن المعتصم ندم على ما وقع منه ، و أنه كان يرسل له كل يوم من
يطمئن على حاله ،

بينما ابتلي الوزير الضال ابن أبي ذؤاد بالشلل الذي أقعده أربع سنوات ، و
صادر المتوكل كل أمواله لبيت المال

* رأيتم عاقبة الصبر ! و لم كان أحمد مثار عجب الناس ! صبر وعلم ودأب .

والحر لا يكتفى من نيل مكرمة *** حتى يروم التي من دونها العطب

يسعى به أمل من دونه أجل *** إن كفه رهب يستدعه رغب

قال أحد العلماء:

مرّ أحمد بن حنبل علينا قادمًا من الكوفة، وبيده خريطة فيها كتب، فأخذتُ
بيده، فقلت: مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة ! إلى متى؟

إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكف ؟ فسكت أحمد، ثم قلت: ستين

ألف؟ فسكت . فقلت : مئة ألف ؟

فقال أحمد : حينئذ يعرف شيئاً !!!!

فنظرنا فإذا أحمد قد كتب ثلاث مئة ألف حديث.

و كما قال أبو يعلى رحمه الله

أحمد إمام في الزهد و حاله في ذلك أظهر وأشهر ، أته الدنيا فأباها والرياسة
فنفاها عرضت عليه الأموال و فرضت عليه الأحوال وهو يرد ذلك بتعفف
وتعلل وتقلل !

و يقول :

إنما هي أيام قلائل .

وفهي ولديه وعمه عن أخذ العطاء من مال الخليفة فاعتذروا بالحاجة فهجرهم
شهرًا لأخذ العطاء

وقال إسحاق عم أحمد

كانت تأتينا في كل يوم مائدة أمر بها المتوكل فيها ألوان الطعام والفاكهة والثلج
وغير ذلك فما نظر إليها أبو عبد الله ولا ذاق منها شيئاً ، و كانت نفقة المائدة
في كل يوم مائة وعشرين درهماً

فما نظر إليها أبو عبد الله

وصرف المتوكل لولده وأهله أربعة آلاف درهم في كل شهر ، فبعث إليه أحمد
بن حنبل رافضاً قائلاً :

إنهم في كفاية يعني ليسوا بحاجة ..

فبعث إليه المتوكل : إنما هذا لولدك ، مالك ولهذا ؟

يعني ما شأنك ليس لبيتك بل لبيت ابنك !

فقال له أحمد :

يا عم ما بقي من أعمارنا ، كأنك بالأمر قد نزل ...يعني تذكر أن الموت قريب

..

فالله الله فإن أولادنا إنما يريدون يتأكلون بنا ، و إنما هي أيام قلائل لو كشف
للعبد عما قد حجب عنه لعرف ما هو عليه من خير أو شر صبر قليل وثواب
طويل إنما هذه فتنة.....

ورب مجاهد شيخ مبجل *** ترجلت الجبال وما ترجل

و لما توفي أحمد أرسلت الأكفان من طرف الخليفة ، فردت عليه !

وقال عم أحمد للرسول :

قل له أحمد لم يدع خادمي يروحه (يعني يهوى عليه و هو مريض مسن)
خشية أن أكون اشتريته من مال الخليفة !

فكيف نكفنه بمالك....

وقال أبو يعلى عن الإمام أحمد :

هو إمام السنة فلا يختلف العلماء الأوئل والأواخر أنه في السنة الإمام الفاخر
والبحر الزاخر ، أؤدي في الله عز وجل فصبر و لكتابه نصر ولسنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم انتصر ، أفصح الله فيها لسانه وأوضح بيانه وأرجح ميزانه
، لا رهب ما حذر ولا جبن حين أنذر ، أبان حقاً وقال صدقاً ، وزان نطقاً و
سبقاً ، ظهر على العلماء وقهر العظماء ، ففي الصادقين ما أوجهه وبالسابقين ما
أشبهه ، وعن الدنيا وأسبابها ما كان أنزهه ، جزاه الله خيراً عن الإسلام
والمسلمين ، فهو للسنة كما قال الله في كتابه المبين " وأخرى تحبونها نصر من
الله وفتح قريب وبشر المؤمنين." .

فتسابق الأقبام وابتدروا لها *** كتسابق الفرسان يوم رهان

وأخو الهوينا في الديار مخلف *** مع شكله يا خيبة الكسلان

قال علي بن المديني (شيخ الإمام البخاري)

أيد الله هذا الدين برجلين ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، و أحمد بن حنبل في
يوم المحنة.

و قال : حدثني صدقة المقابري :

قال كان في نفسي على أحمد بن حنبل قال فرأيت في النوم كأن النبي صلى الله عليه وسلم يمشي في طريق وهو آخذ بيد أحمد بن حنبل وهما يمشيان على تودة ورفق وأنا خلفهما أجهد نفسي في أن ألحق بهما فما أقدر فلما استيقظت ذهب ما كان في نفسي ثم رأيت بعد كأني ألحق بهما فما أقدر فلما استيقظت ذهب مناد الصلاة جامعة فاجتمع الناس فنادى يؤمكم أحمد بن حنبل فإذا أحمد بن حنبل فصلى بالناس وكنت بعد إذا سئلت عن شيء قلت: عليكم بالإمام يعني أحمد بن حنبل .

نور النبوة في ميمون غرته * تكاد ترشفه الأجفان فرقانا**

* ومن هيئته بعد موته نتيجة صموده و صبره بفضل ربه سبحانه :

لما ذكر أصحاب أحمد بسوء للخليفة جعفر المتوكل بعد موت الإمام أحمد غفر الله لنا وله قال لصاحب الخبر : لا ترفع إلي من خبرهم شيئاً وشد على أيديهم فإنهم وصاحبهم من سادات أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ونشر له بعد مماته من المناقب ورفع له بذلك العلم بين سائر الأمم فتنافس حين موته في الصلاة عليه العلماء والكبراء والأغنياء والفقراء والصلحاء والأولياء لأنه توفي في شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع سبعون سنة فقال المتوكل على الله محمد بن عبد الله بن طاهر طوبى لك ، صليت على أحمد ابن حنبل ! .

و قال الإمام قتيبة :

لولا الثوري لمات الورع و لولا أحمد بن حنبل لأحدثوا في الدين
قلت: لقتيبة تضم أحمد بن حنبل إلى أحد التابعين فقال إلى كبار التابعين.

مُسند الإمام أحمد :

هو موسوعته القيمة التي جمعها ابنه عبد الله من بعده ، به أربعين ألف حديث
شريف ... حيث تروى المصادر أنها خلاصة رحلة عمره التي طاف فيها بالدنيا
مرتين ليجمعها وينقحها ... فيسأل عن الرجال و يحدد مصداقيتهم و قوة
حفظهم و صحة روايتهم ... و يكتب الأثر و يضبط لفظه ...

و قد بدأ بجمع مسنده منذ أن كان عمره ستة عشر سنة، فكان يسجل
الأحاديث بأسانيدها، في أوراق منثورة وظل على هذه الحال إلى أن قارب
الوفاة .

ولما شعر بدنو أجله بدأ يجمعها ويحذف منها ... وأملى هذه الأحاديث كلها
على أولاده وأهل بيته و بدأ ابنه العالم العلم الفاضل النجيب عبد الله بن أحمد
بن حنبل ...

بجمع هذه الأحاديث وتنسيقها من بعده فجمعها عبد الله بطريق السند ..

فكان يرتب الأحاديث المختلفة ، حسب الراوى من الصحابة ، فيبدأ
بالأحاديث المروية عن أبي بكر ثم عن عمر و هكذا... و لك أن تتخيل مشقة

جمع عشرات الآلاف من الأحاديث ثم ترتيبها بدون أجهزة حاسوب ، و لا أوراق حديثة و لا إضاءة مريحة و لا أدوات كتابة سريعة

نمتم ثم تطلبون المعالي *** والمعالي على النيام حرام

شر عيش الرجال ما كان حلماً *** قد تسيع المنية الأحلام

و أما عن صحة أحاديث مسند الإمام أحمد

فقد كانت طريقته هي اشتراط الصحة التامة في أحاديث العقيدة و الأحكام الفقهية ، أما إن كانت تتعلق بفضائل الأعمال و لها ما يؤيدها من الكتاب أو السنة الصحيحة فلا بأس أن تكون ضعيفة ، و لكن ليست شديدة الضعف و لا موضوعة .

وإن كان الحديث يعارضه نص آخر أقوى منه لا يمكن الجمع بينهما، حذف الأضعف.

و ألف أيضا : الناسخ والمنسوخ .

- العلل .

- السنن في الفقه .

من أقواله:

- إذا أردت أن يدوم لك الله كما تحب فكن كما يجب.

من تلامذته :

روى عنه الحديث خلق كثير، منهم عدد من مشايخه من مثل: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، وإسماعيل ابن عُلَية، ووكيع بن الجراح، وعبد الرحمن بن مهدي، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومعروف الكرخي، وعلي ابن المدني ، وروى عنه غيرهم الكثير.

منهم: أبناؤه و منهم أيضاً:

البخاري، والترمذي، وإسحاق بن راهويه، وأبو بكر الطبراني.

ومن روى عنه من النساء : حُسن جاريته، وخديجة أم محمد، وريحانة بنت عمه ، و زوجته أم عبد الله ، وعباسة بنت الفضل زوج أحمد وأم ابنه صالح ، ومحنة أخت الزاهد بشر الحافي.

وفاته

توفي الإمام يوم الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين للهجرة ، وله من العمر سبع وسبعون سنة. وقد اجتمع الناس يوم جنازته حتى ملأوا الشوارع ، غير من كان في الطرق وعلى الأسطح.

صبروا قليلا فاستراحوا دائما *** يا عزة التوفيق للانسان

وقد دفن الإمام أحمد بن حنبل في بغداد. وقيل أسلم يوم مماته الكثير من

اليهود والنصارى والمجوس تأثرا!

وأن جميع الطوائف حزنت عليه، وأنه كانت له كرامات كثيرة وواضحة .

و الحمد لله رب العالمين و على رسولنا صلوات الله وسلامه حيا محمودا وميتا

مفقودا أفضل صلوات وأتمهاها وعلى إخوانه من النبيين وآله أجمعين.

يا سلعة الرحمن هل من خاطب *** فالمهر قبل الموت ذو امكان

لكنها حجت بكل كريهة *** ليصد عنها المبطل المتواني

وتناها المهمم التي تسمو الى *** رب العلا بمشيئة الرحمن

يا رب هم الغرباء قد *** لجأوا اليك وأنت ذو الاحسان

ورضوا ولايتك التي من نالها *** نال الأمان ونال كل اماني

ورضوا بوحيك من سواه وما ار *** تضوا بسواه من آراء ذي الهذيان

يا رب ثبتهم على الايمان واجـ *** —علمهم هداة التائه الحيران

ولك المحامد كلها حمدا كما *** يرضيك لا يفنى على الأزمان

مما تشاء وراء ذلك كله *** حمدا بغير نهاية بزمان

وعلى رسولك أفضل الصلوات والتـ***سليم منك وأكمل الرضوان

وعلى صحابته جميعا والألى *** تبعوهم من بعد بالاحسان

من المراجع الكثيرة التي تالأت بسيرته :

سير أعلام النبلاء للذهبي

تذكرة الحفاظ للذهبي

جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر

الانتقاء لابن عبد البر

حلية الأولياء لأبي نعيم

البداية و النهاية لابن كثير

رحمهم الله جميعا

د . إسلام المازني

Doctor_thinker@hotmail.com